" الأدب العربى "

" فى ظلال العصر العباسى الثانى"

الدكتور

عبد الهادى عبد النبى على أبو على

أستاذ الأدب والنقد

كلية اللغة العربية بالمنصورة

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمـــد لله رب العالميـــن ، خلق الإنسان وعلمه البيان ، والصلاة والســـلام علـــى أفضل الأنبياء وسيد المرسلين ، سيدنا محمد بن عبد الله وعلـــى آلــه وأصحابه أجمعين والتابعين لهم وكل من نهج نهجهم واتبع سبيلهم إلى يوم الدين .

وبَعْدُ

فقد تناولت في هذه الدراسة حالة الأدب والشعر في ظلال العصر العباســـي الثاني ووضحت ما كان عليه الأدب والشعر في هذه الفترة من قـــوة وازدهـــار أو ضعف واضمحلال ، هذه الفترة التي تميزت بوجود ظاهرتيـــن بارزتين وكانتا لهما الأثر الكبير في الأدب والشعر وصبغتهما وأثرت فيهما تأثيرا كبيرا في الشكل والمضمون .

الظاهرة الأولى : انقسام الدولة العباسية وتعدد دويلاتها على ساحة الحياة السياسية والأدبية : كالدولة الأموية في الأندلس سنة ١٣٨هـ أي سنة ١٤١ هـ ودولة الأدارسة في المغرب الأقصى ١٧٢هـ - ٢٦٤ هـ ودولة الأغالـــبة في تونس ١٨٤ هـ - ٢٩٦هـ والدولة الطولونية في مصر ٢٥٤ هـ - ٢٩٢هـ والدولة الصفارية في سجستان ٢٥٦هـ والدولة السلجوقية ٢٦١ هـ - ٣٨٩ هـ فيما وراء النهر وإيران ثم فارس والعراق وغيرها بعد ذلك .

والدولة الزيدية في اليمن ٢٨٤ هـ والدولة الفاطمية في بلاد المغرب ثـــم مصر والشام من سنة ٢٩٦ هـ - ٥٦٧ هـ والدولة الحمدانية في حلب والموصـــل ٣٢٣ هـ والدولة البويهية فـــي فارس والعـــراق ٣٣٤ هـ - ٤٤٧ هـ - والدولة الزيدية في تونس ٣٦٢هـ ودولة بني حماد في الجزائر ٣٩٨ هـ - ٥٤٧ هـ والمـــرابطون في المغرب الأقصى وجزء من الجزائر

والأندلس ٤٤٨ هـ – ٥٤١ هـ والموحدون فى المغرب ٥٢٤ هـ – ٦٦٨ هـ .

والدولة الأيوبية فى مصر والشام ٥٦٩ هـ – ٦٥٠ هـ ودولة بنى حفص فى تونس ٦٢٥ هـ – ٩٨٢ هـ ودولة بنى زيان فى الجزائر ٦٣٧ هـ – ٩٦٢هـ

والظاهـــرة الثانية : كثرة الحروب فى هذا العصر خاصة : الحروب الصليبية التى ظلت على مدى قرنين من الزمان من سنة ٤٩١ هـ – ٦٩٣ هـ .

وقد تحدثت فى هذه الدراسة عن حالة الدولة العباسية وكيف قامت أشـــهر الدويلات واستقلت عن الدولة الأم ثم تعرضت لتقسيمات العصر العباســـى وتحدثـــت عـــن حالة الأدب والشعر بوجه خاص فى العصر العباسى الثانى مبينا أهم العوامل التى أثرت فى ازدهاره فى أول العصر ثم فى اضمحلاله بعد ذلك ، ثم تحدثت عن النثر الأدبى وفنونه ومراحل قوته وضعفه ونماذج منه وخصصت فن المقامة بحديث مفصل لأهميتها وابتكارها .

ثم تعرضت بالحديث المفصل عن الأدب والشعر فى أهم الدويلات التى ظهـــرت فى ظلال العصر العباسى الثانى : كالدولة الحمدانية والدولة البويهية والدولة الفاطمية والدولة الأيوبية ، وركزت الحديث على الحركة الشعرية لأن الشعر أهم من النثر الفنى فى هذه المرحلة من تاريخ الأدب العربى فهو التعبير الـــذى عـــبر عـــن مشاعر العرب والمسلمين فى هذه الفترة وسجل أحداثها : السياسية والحربية والاجتماعية تسجيلا واضحاً بخلاف النثر .

وأسأل الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد فإنه نعم المولى ونعم النصير .

دكتور

عبد الهادى عبد النبى على

العصر العباسى الثانى

بـــدأ العصر العباسى بسقوط الدولة الأموية على يد العباسيين وبمســـاعدة الفـــرس بقـــيادة أبى العباس السفاح الذى تولى الخلافة الإســـلامية كـــأول خلـــيفة للعباسيين عام ١٣٢ هـ ، ٧٥٠ م وظلت الخلافـــة العباســـية خلافة قوية لها السيادة واليد الطولى على طول أملاكها فى ربوع الدولة الإسلامية من سنة ١٣٢ هـ – ٢٣٢م أى فى المائـــة الأولـــى من سنى حكمها وكان هذا القرن هو عصر الإسلام الذهبى حيث بلغت فيه دولة المسلمين قمة مجدها وأعلى مكانتها فى السيادة والحضارة والثروة والقوة والآداب والعلوم والشعر والفنون وكانت الدولـــة الإســـلامية حينئذ صاحبة السيادة على العالم الإسلامى فى الوقت الذى كانت فيه أوروبا تغرق فى غياهب الجهل والتخلف والضعف .

واســـتمرت الدولـــة العباسية على قوتها ووحدتها بالرغم من وجـــود الـــنفوذ التركى وتسلط الأتراك على أمور الدولة فى القرن الثانى من قيامها أو المائة الثانية من العصر العباسى من ٢٣٢ هـ – ٣٣٤ هـ وكان ذلك مع بداية خلافة المتوكل على الله العباسى مع أن الخلـــيفة المعتصم بالله العباسى والذى تولى الخلافة عام ٢١٨ هـ – ٨٣٣ م هو الذى أكثر من الأتراك فى دولته وشئونها وفضلهم على الفرس ولكن ظهر استبدادهم فى أيام الخليفة المتوكل على الله الذى ولـــى الخلافة عام ٢٣٢ هـ – ٨٤٧ م – ٢٤٧ هـ – ٨٦١ م ، حيث زاد اســـتبداد الأتراك وطمعهم فى الحكم والدولة وأصبحوا الآمرين

والناهيـــن في الحكم وما على الخليفة العباسي إلا الخضوع والطاعة بل أصبحت لهم الكلمة العليا في تعيين الخليفة وعزله بل وقتله فقتلوا الخليفة المتوكل وولوا ابنه المنتصر بدلا منه كما قتلوا الخليفة المعتز – الـــذى تولى الخلافة بعد كل من المنتصر بالله والمستعين بالله – عـــام ٢٥٥ هـ شر قتلة وسملوا عين الخليفة المستكفى بالله وحبسوه حـــتى مات في الحبس ... وهكذا حتى أصبح الخلفاء العباسيون آلة فـــى يـــد الأتـــراك وأصـــبح الخليفة العباسى هو الذى يدين بالولاء والطاعـــة للأتراك بدلا من أن يدينوا هم للخليفة بالطاعة والولاء ، وقد سمى هذا القرن بالقرن التركى .

ثم ما لبثت الدولة العباسية أن تفتت وقامت الدويلات المستقلة حيث انفرط عقد الدولة العباسية الواحدة إلى دويلات مستقلة حيث أعلنـــت فيه كثير من الدول استقلالها على الدولة العباسية كالدولة البويهـــية فـــى فارس والعراق وامتد حكمها من ٣٢٤ هـ إلى سنة ٤٤٧ هـ ،٩٤٥– ١٠٥٥م.

والدولـــة الغزنوية في أفغانستان والهند وامتد حكمها من سنة ٣٥١ هـ – ٥٨٢ هـ ،٩٦٢م – ١١٨٦ م .

والدولـــة الفاطمـــية في مصر والشام وامتد حكمهـــا من سنة ٢٩٧ هـ – ٥٦٧ هـ ، ٩٠٩ م – ١١٧١ م .

والدولة الحمدانية في حلب والموصل وبعض الأماكن من سنة ٣٢٣ هـ – ٣٩٤ هـ .

والدولـــة الأيوبية فى الشام ومصر بعد انهيار الدولة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ .

والدولـــة السامانية فيمـــا وراء النهر وإيران سنة ٢٦١ هـ – ٣٨٩ هـ ، وكانـــت دولة الأدراسة من قبل فى المغرب الأقصى من سنة ١٧٢ هـ – ٣٦٤ هـ والأغالبة من سنة ١٨٤ هـ – ٢٩٢ هـ .

فضلا عن الدولة الأموية بالأندلس والتى قامت سنة ١٣٨ هـ .

ومـــع تفتت الدولة العباسية على هذه الشاكلة فقد كانت المائة الثالـــثة مـــن العصر العباسى من سنة ٣٣٤ هـ إلى سنة ٤٤٧ هـ هى أزهى العصور الأدبية فى الدولة العباسية وقد كان القرن الثالث من قـــرون حكم العباسيين هو القرن الذهبى وعصر الإسلام الذهبى من حيـــث التقدم والحضارة وازدهار الاداب والعلوم لا عصر الإسلام الذهبى من حيث القوة والمنعة واتساع السلطان فقد كان القرن الأول من حكم العباسيين هو كذلك .

فقـــد كانت المائة الثالثة من الدولة العباسية من سنة ٣٣٤ هـ إلـــى ســـنة ٤٤٧ هـ هى العصر الذهبى للعلوم والآداب والحضارة العربـــية والإسلامية حيث نضجت العلوم والآداب وأتت أكلها على اخـــتلاف موضوعاتها وفنونها وظهرت الكتب الوافية فى أكثرها لا سيما فى اللغة والأدب وعلوم الدين والعلوم الحديثة والنقل والترجمة. وفـــى ســـنة ٤٤٧ هـ دخل السلاجقة بغداد واستولوا عليها وكان هذا أخطـــر الانقلابات السياسية أثرا وخطرا حيث قام بهذه الثورة وهذا

الاحتلال أمة ذات بطش وقوة شهرت سيفها فى وجه الأمة الاسلامية وأعملــت فيها القتل والسلب والنهب ولم تنشأ فرعا للدولة العباسية كــالدول الأخــرى وكانوا أعاجم جهلاء فخبت جذوة الشعر والأدب وانطفــأت شــعلة القريض والعلم فأصبحت الآداب باهتة والأشعار ضعيفة سيئة .

وقــد استمر السلاجقة فى الحكم حتى سنة ٦٥٦ هـ حيث قام المغول باجتياح العالم الاسلامى واستولوا على بغداد سنة ٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م علــى يد هولاكو كما استولوا على معظم العالم الإسلامى وامــتد ســلطانهم من حدود الهند شرقا إلى حدود سوريا غربا وقد تخللتهما سيادة الفرس والترك مدة قصيرة فى فارس والعراق .

وقــد حكــم الأتــراك من حدود سوريا شرقا إلى آخر حدود مصــر غــربا وســاد العــرب أو البربر فيما وراء ذلك غرباً إلى شواطئ الأطلنطى وفى اليمن ، وانتقلت الخلافة العباسية حينذاك إلى مصر .

وقد ظل المغول فى حكمهم من سنة ٦٥٦ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ حيــث دخــل العثمانيون مصر على يد السلطــان سليم الفاتح سنة ٩٢٣ هـ وظل العثمانيون حتى مجئ نابليون بونابرت إلى مصر سنة ١٢١٣هـ .

وقــد أطلق على الفترة التى استولى فيها المغول من سنة ٦٥٦ هـ إلــى ٩٢٣ هـ " العصر المغولى " كما أطلق عليه " العصر المملوكى"

حيث كان حكم المماليك لمصر والشام اللتين خضعتا لسلطان المماليك من سنة ٦٤٨ هـ إلى سنة ٩٢٣ هـ .

ثم جاء العصر العثماني من سنة ٩٢٣ هـ إلى سنة ١٢١٢ هـ ثم كان العصر الحديث من سنة ١٢١٣ هـ إلى يومنا .

فالعالم الإسلامي كان قد انقسم بين : المغول والترك والعرب في الفترة من ٦٥٦ إلى ٩٢٣ هـ ومرت على العالم الإسلامي نحو ثلاثة قرون متوالية وليس هناك دولة عربية تستحق الذكر ولم يسيطر العرب إلا على جزء قليل منه ومع ذلك فقد ظلت اللغة العربية حية لأنها ظلت لغة السياسة في معظم الدول حينئذ ولغة العلم والدين فيها كذلك حتى المغول قد حافظوا على اللغة العربية بالرغم من أنهم قد هددوا آدابها بما قاموا به من تخريب وتدمير في أثناء حروبهم حيث قتلوا ونهبوا وأحرقوا وهدموا.... فكم من المكتبات أحرقوها خاصة مكتبة بغداد التي كانت تزخر بملايين الكتب في مختلف التخصصات فقد أحرقوها وألقوا بآلاف الكتب منها في نهر دجلة حتى كانت هذه الكتب تؤلف جسرا كبيرا في نهر دجلة.

" على أن الفضل الأكبر في بقاء اللغة العربية في ذلك العصر يرجع إلى مصر والشام حينما كانتا في حوزة المماليك ومن بقي من ملوك الأيوبيين ، حيث كانتا الملاذ الوحيد للعرب والمسلمين الذين فروا أمام المغول حينما اكتسحوا خراسان وفارس والعراق وكانت مصر والشام حينذاك مملكة واحدة وعاصمتها القاهرة ولغتها العربية ونبغ فيها معظم شعراء العصر المغولي وأدبائه وعلمائه " .

ونتيجة لهذه الأحداث التاريخية والسياسية والحضارية فقد اختلف الأدباء والمؤرخون فى العصر العباسى وتقسيمات عصوره :

فذهب البعض إلى أن العصر العباسى ينقسم إلى أربعة عصور:

١- **العصر العباسى الأول** : ويبدأ من ١٣٢ هـ وينتهى سنة ٢٣٢ هـ وهى المائة الأولى من قيام الدولة العباسية وسيادة العباسيين فى بغداد.

٢- **العصر العباسى الثانى** : ويبدأ من سنة ٢٣٢ هـ إلى سنة ٣٣٤ هـ أى المائة الثانية من العصر العباسى تبعاً لضعف الخلفاء فى سياسة وإدارة الدولة.

٣- **العصر العباسى الثالث** : ويبدأ من سنة ٣٣٤ هـ إلى سنة ٤٤٤هـ أى المائة الثالثة من قيام الدولة العباسية حيث يبدأ باستقرار الدولة البويهية وينتهى بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ .

٤- **العصر العباسى الرابع** : ويبدأ من سنة ٤٤٧هـ وينتهى سنة ٦٥٦وينتهى سنة ٦٥٦ هـ أى القرنان الأخيران من الدولة العباسية حيث يبدأ بدخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧هـ وينتهى بدخول التتار بغداد واحتلالها على يد هولاكو سنة ٦٥٦هـ .

ونرى آخرين يقسمون العصر العباسى إلى عصور ثلاثة :

١- **العصر العباسى الأول** وبدأ من سنة ١٣٢هـ وينتهى سنة ٢٣٢هـ

٢- **العصر العباسى الثانى**: ويبدأ من سنة ٢٣٢هـ وينتهى سنة ٣٣٤هـ .

٣- **العصـــر العباسى الثالث** : ويبدأ من سنة ٣٣٤هـ وينتهى سنة ٦٥٦هـ .

بينما نرى آخرين يسمون العصر العباسى إلى عصرين اثنين فقط :

١- **العصر العباسى الأول** من سنة ١٣٢هـ وينتهى سنة ٢٣٢هـ .

٢- **العصـــر العباسى الثانى** يبدأ من سنة ٢٣٢هـ وينتهى سنة ٣٣٤ هـ .

وعصـــر الدول والإمارات يبدأ من سنة ٣٣٤هـ وينتهى فى أول العصر الحديث حيث يجعل العصرين : المغولى والعثمانى من عصـــر الـــدول والإمـــارات وهذا رأى الدكتور شوقى ضيف فى تقسيماته لهذه الفترة .

بينما يرى آخرون أن العصر العباسى عصران :

العصـــر العباســـى الأول ويبدأ من سنة ١٣٢هـ وينتهى سنة ٣٣٤هـ حيث الدولة العباسية دولة واحدة سياسيا وإداريا .

والعصر العباسى الثانى : وهو عصر الدول والإمارات ويبدأ من سنة ٣٣٤هـ وينتهى سنة ٦٥٦هـ بدخول المغول بغداد على يد هولاكو .

وهـــذا التقســـيم هو الذى نرتاح إليه ونرتضيه ، ففى العصر العباســـى الأول كانـــت الدولة العباسية دولة واحدة بسطت سلطانها على أملاكها فى أنحاء الدولة حتى وإن تدخل الأتراك فى الحكم فى أيام المتوكل .

والعصـــر العباســـى الثانى : انقسمت الدولة فيه إلى دويلات مســـتقلة وتعددت عواصمها وأصبحت كل دولة مستقلة إما استقلالا تاما أو تابعة للخلافة العباسية وإن كان ذلك شكليا وصوريا .

وممـــا ســـبق يتبيـــن لنا أن هناك ظاهرتين بارزتين قد ميزتا هذا العصر العصر العباسى الثانى ٣٣٤هـ – ٦٥٦هـ عصر الدول والإمارات:-

الظاهرة الأولى : ظهور هذه الدويلات المستقلة التى انفصلت عن الدولة العباسية واستقلت عنها .

الظاهـــرة الثانية : كثرة الثورات المسلحة والحروب الكبيرة التى ســـادت هذا العصر – كثورة الزنج وثورة القرامطة ، والحروب العديدة الـــتى دارت بيـــن العـــرب والمســـلمين من جهة وبين كل من الروم ثم الصليبين من جهة أخرى وهاتان الظاهرتان هما أكبر ما يميز هذا العصر – العصر العباسى الثانى أو عصر الدول والإمارات .

الشعر فى العصر العباسى الثانى:

تعـــددت الدويـــلات فى العصر العباسى الثانى وانقسمت إلى دويـــلات عديدة واستقلت كل دولة منها بشئونها الداخلية مما أضعف الدولة العباسية فى عصرها الثانى سياسيا تبعا لهذا الانقسام والتفكك ومع ذلك فإن هذا الانقسام لم يؤثر عليها من الناحية العلمية والأدبية خاصـــة وأن جمـــيع الدويلات المختلفة فى الجنس واللغة القومية قد حرصـــت على أن تكون اللغة العربية هى اللغة الرسمية للدولة فى التعليم والسياسة والقضاء ولم تجاوز آدابهم العربية طبيعتها الأصلية

من حيث الذوق العربى السليم حتى وإن اقتضت الأحوال أن تصطبغ هذه الآداب بالصبغة القومية تبعا لاختلاف بيئة كل دولة منها.

فقد ظل العلم والأدب مزدهرين ازدهارا قويا ونما كل منهما نمواً قويا أقوى مما كان عليه فى العصر العباسى الأول وخطا العلم والأدب خطـوات واسعة بعيدة وعميقة وجدت فنون جديدة ومعارف مسـتحدثة لـم يألفها العلم والأدب من قبل وكان هذا التطور والتقدم والازدهـار فـى مجال الأدب نتيجة عوامل عديدة وأسباب متعددة كانت وراء هذا التطور والازدهار أهمها :

١- تشـجيع الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء لهذه الدول للأدبـاء والشـعراء وإغداق الأموال الطائلة عليهم ومنحهم الهبات الثميـنة وتقريـبهم مـن مجالسهم ومحاولة كل واحد منهم أن تكون دويلته مركز إشعاع وثقافة يؤمها القاصدون من الأدباء والعلماء من كـل مكان ليشيدوا بهذا الملك أو الأمير وينشروا على الناس أفضاله وأعمالـه ومآثـره وحتى يظهروا أفضلية هذه الإمارة وسبقها على الإمارات الأخرى فى مجال العلم والأدب والتقدم .

٢- وقد ساعد هؤلاء الخلفاء والحكام والأمراء على تشجيعهم لـلأدب والشعر بوجه خاص أن أكثرهم كان يتذوق الأدب والشعر وينقده بل كان منهم الشعراء والأدباء فكانوا على بصر بأمور الشعر والأدب ومكانته وكانوا أهل بلاغة وتفوق وفصاحة ..

فالدولـة البويهـية كان معظم حكامها ووزرائها من الأدباء

والكتاب كابن العميد والصاحب بن عباد والملك عضد الدولة فكانوا لايعيـــنون وزيرا أو واليا إلا من العلماء والأدباء.والدولة الحمدانية التى اشتهر حكامها بالأدب والشعر والعلم وعلى رأسهم سيف الدولة الحمدانى .

والدولـــة الفاطمية حيث كان حكامها من أهل العلم والأدب والشعر وقـــد اشـــتهروا بالفصـــاحة والأدب وجعلوا من عاصمتهم القاهرة مركز إشعاع ثقافى ينشر العلم والأدب على العالم الإسلامى كله .

والدولـــة الأيوبية التى خلفت الفاطميين فى مصر والشام قام حكامهـــا الأيوبيـــيون بجهد كبير فى سبيل تقدم الأدب والعلم وقربوا العلمـــاء والأدبـــاء والشعراء إليهم وأغدقوا عليهم الأموال ومنحوهم الهبات خاصة صلاح الدين الأيوبى .

٣- هذه التنافس الشديد بين حكام هذه الدويلات ومحاولة كل إمـــارة منها بأن تكون أكثر ازدهارا وتقدما خاصة فى مجال الأدب والعلـــم - على سائر أخواتها من الأمارات الأخرى وجذب النابغين فـــى مخـــتلف العلـــوم والفنون والآداب إليها حتى يكون لها السبق والغلبة على بقية الإمارات .

٤- تعـــدد الحواضـــر والأمصـــار الأدبية والمراكز الثقافية والعلمـــية فـــى هذا العصر .. فبعد أن كانت بغداد عاصمة الخلافة العباســـية قـــبلة الشعراء والعلماء والأدباء ومحط أنظارهم ومطمع ومطمـــح غايـــتهم أصبحت هناك عواصم عديدة وأوطانا كثيرة تفتح

أبوابهـــا لهؤلاء العلماء والأدباء والشعراء مرحبة بهم ومغدقة عليهم مـــن خـــيراتها وأصـــبح أمام هؤلاء العلماء والأدباء حواضر أدبية مـــتعددة تتسع لإظهار مواهبهم – كالقاهرة وحلب ودمشق وخراسان وغيرها .

٥- هـــذا الإرث الضـــخم والتراث الموروث في مجال العلم والأدب من العصور السابقة خاصة هذا التراث الذى آل إلى العصر العباســـى الـــثانى من العصر العباسى الأول فى مختلف فروع العلم والأدب والمعرفة والثقافة والحضارة .

فهذه النهضة العلمية والأدبية وهذا التقدم والازدهار فى مجال العلـــوم والآداب الـــتى سايرت العصر العباسى الأول وعلا شأنها وتدعـــم بنـــيانها فيه كانت إرثا لعلماء وأدباء العصر العباسى الثانى حيـــث ثقفـــوه ودرسوه وتربوا على ما تُدته فنمت مداركهم واتسعت عقولهـــم وتأثروا به تأثرا كبيرا مما أعانهم أن يضيفوا إليه ويتقدموا عليه ويخترعوا أشياء لم تكن موجودة عند سابقيهم فى مجال العلوم والآداب والشعر والنثر بوجه خاص .

٦- إنشـــاء المســـاجد الكثيرة التى كانت تقوم بدور التثقيف الدينى والعلمى والأدبى والتى كانت بمثابة جامعة كبرى تقوم بدور مهم فـــى دنيا الثقافة والتقدم الحضارى والتى كان يقصدها الطلاب من كل مكان فى أنحاء الدولة الإسلامية كالجامع الأزهر الشريف بمصر.

٧- إنشـــاء المدارس المختلفة والتى كانت منتشرة فى أنحاء

العالم الإسلامى حينئذ وقد تغيرت طرق التدريس عما كانت عليه فى السابق حيث نبغ العلماء والأدباء والشعراء ونضج العلم نضوجا كبيرا فى الدول الإسلامية ، وقد اشتهر بإنشاء المدارس فى الإسلام نظام الملك الفارسى وزير ملك شاه السلجوقى التركى وأشهر المدارس حينئذ : المدرسة النظامية فى بغداد والتى بناها نظام الملك فقد نبغ منها كثيرون من العلماء والأدباء . فقد اعتنى هذا العصر ببناء المدارس عناية فائقة مما كان له الأثر الفعال فى إثراء الثقافة ونهوض الأدب والعلم .

٨- تعدد عناصر المجتمعات فى هذا العصر واختلاف أجناسهم من عرب وترك وفرس ومغول وجركس وكرج وإفرنج واختلاطهم ببعضهم البعض بالزواج والمصاهرة والمعاملة وكل عنصر منهم يختلف فى أصله ولغته وأدبه وعاداته وتقاليده عن بقية العناصر الأخرى وبالتالى أثر كل عنصر منها بثقافته فى العناصر الأخرى ، زاد على ذلك اتساع دائرة الحروب والفتوح فى هذا العصر التى بعثت على الاختلاط بين الأمم المختلفة وقد عاد ذلك كله بالخير العميم على الأدب والشعر فاختلاط الأمم يفتق القرائح والتزاوج بين الأباعد يقوى الأبدان والعقول " .

٩- تعدد البيئات واختلاف طبيعة كل دولة عن طبيعة الدول الأخرى بما فيها من ازدهار وتقدم ورقى فى مختلف مناحى الحياة قد عاد هو الآخر بالتقدم والرقى على الأدب والشعر فجدت

موضـــوعات أدبـــية وأغراض شعرية لم تكن موجودة فى العصور الســـابقة أو لـــم تكن موجودة على نفس القدر تقدما ورقيا وشيوعا خاصة فى مجال وصف الطبيعة .

١٠- مـــا صاحب العصر العباسى من صرا عات وحروب داخلية وخارجية - خاصة الحروب بين المسلمين والروم والحروب بين المسلمين والصليبيين أيام الحروب الصليبية التى بدأت رحاها منذ عـــام ٤٩١هـ - ١٠٩٧م والـــتى شنتها الدول الصليبية على الشرق الإســـلامى والعربى طمعا فى خيراته ونهبا لثرواته والتى استمرت نحـــو قرنيـــن من الزمان.هذا كله قد أثر فى الأدب العربى فى هذه الفترة والشعر منه بوجه خاص حيث راح الشعراء والأدباء ينظمون شعرا كثيرا للدعوة إلى الجهاد وتوحيد الصف الإسلامى ومدح القادة وتحميســـهم لمجابـــة هذا الخطر الصليبى الذى هدد الأمة فى عقر دارها ويمثل خطرا داهما على هويتها ودينها فضلا عن رثاء القتلى مـــن المســـلمين وهجـــاء الأعداء الصليبيين وتصوير هذه المعارك والملاحم القتالية فى قصائد شعرية رائعة .

١١- كذلـــك ســـاعد على هذه النهضة الأدبية والشعرية هذه المكتـــبات الضـــخمة والـــتى كانت تضم الآلاف المؤلفة من الكتب والمصـــادر فـــى مختلف التخصصات وألوان المعرفة والتى كانت منتشرة فى أنحاء الدولة الإسلامية على مختلف دويلاتها وقد تنافس الأمـــراء والخلفـــاء والوزراء على جلب الكتب والمصادر وتزويد مكتبات دويلاتهم بها .

١٢- فضلا عن ترجمة كثير من العلوم إلى اللغة العربية فى مختلف العلوم : الطبية والفلسفية والمنطق والطبيعة والآداب الفارسية والهندية واليونانية وغيرها كل هذا قد اطلع عليه الأدباء والشعراء فى هذا العصر فأثر فى ثقافتهم ونما مواهبهم وبالتالى فى أدبهم وأشعارهم .

هذه العوامل وغيرها كانت وراء تقدم الأدب والشعر فى العصر العباسى الثانى وعملت على تقدمه وازدهاره وتطوره حيث ظل الشعر والأدب مزدهرين فى هذا العصر، فقد تجمعت له هذه العوامل التى ساعدته على التقدم والتطور خاصة وأن عقول الأدباء والشعراء قد نضجت فى هذا العصر لهذه العوامل وغيرها فأنتجت أدبا وشعرا قيما .

ففى مجال الشعر وجد كثير من الشعراء فى مختلف الإمارات العربية والذين راحوا يتغنون بأشعارهم فى فنون الشعر المختلفة والتى نظم عليها إخوانهم الشعراء السابقون فى العصور السابقة من: مدح وفخر وهجاء ورثاء وغزل ووصف وطبيعة وخمر وعتاب وشكوى وحكمة وغير ذلك من أغراض الشعر القديمة والتى تأثرت ببيئتهم وجاءت وكأنها فى ثوب جديد لما اتسمت به وصبغتها بصبغة المبالغة والغلو .

فقد اتسم الشعر فى هذا العصر من حيث الأغراض بالتجديد فى موضوعاته القديمة أو إبداع موضوعات جديدة اقتضتها الحياة الجديدة وتطلبتها الأوضاع الإجتماعية والحضارة الواسعة والمدنية

المتقدمة والحالة السياسية الداخلية والخارجية التى كان عليها هذا العصر والحروب المتعددة الطاحنة كالحروب الصليبية والتى ظلت زمنا طويلا خيث ظلت نحو قرنيين من الزمان .

وبعد أن كانت معظم أغراض الشعر تدور حول : المدح والفخر والرثاء والهجاء والغزل وجدت موضوعات وجدت أبواب جديدة اقتضتها حياة هذا العصر مثل : وصف الحيوانات المتوحشة ووصف أنواع من اللهو واللعب وشكوى الزمان والإخوانيات والتهكم والمجون والشعر الصوفى والشعر الفلسفى والتعليمى ووصف أنواع الطعام وغيرها ... واتسعت دائرة الرثاء فشملت رثاء الحيوانات والطيور وتطور شعر العتاب حيث اتسع للتأملات الفكرية والخطرات النفسية وكثر شعر الزهد كثرة هائلة وشعر الحروب الصليبية التى تطلبتها المعارك بين العرب والمسلمين والصليبيين وتصوير المعارك الحربية فى صورة ملاحم شعرية رائعة.ويعد المتنبى أبرع شاعر فى وصف وتصوير المعارك الحربية فى عصره وغير عصره .

ولكن حالة الأدب والشعر فى هذا العصر – العصر العباسى الثانى – لم تستمر على حالتها من حيث القوة والازدهار والتقدم والنهوض وما لبثت أن تغيرت حالة الشعر عما كانت عليه من قبل بعد ذهاب هؤلاء الحكام والأمراء الذين عملوا على رفع رايته وتشجيع الشعراء بمختلف الوسائل مثل:سيف الدولة الحمدانى

والصاحب بن عباد وغيرهما الذين ناصروا الأدب والشعر واهتموا به اهتماما بالغا فكان عصرهم أزهى عصور الأدب على الإطلاق ، فقد صارت أكثر أمور الدول إلى الأعاجم الذين لم يهتموا بالأدب وانصرفت القرائح إلى الفقه والتصوف وغيرهما من العلوم الدينية وانصرف الشعراء عن الشعر بانصراف الحكام عنهم وأصبح الشاعر لا ينظم رغبة فى مال أو جائزة فتغيرت أغراض الشعراء من النظم وقل النابغون منهم بالرغم من اتساع الدولة الإسلامية وكثرة الشعراء الذين لم ينبغ منهم نصف ما نبغ فى السابقين عليهم .

فقد كان الشعراء فى أوائل هذا العصر قويا جزلا فى ألفاظه وعباراته ملائما للموضوع الشعرى وللجو النفسى يزخر بكثير من المعانى الرائعة والمبتكرة والتى جاءت بها مخيلة الشعراء إلا أنه أصيب بالضعف والركاكة والزينة اللفظية والمحسنات البديعية المتكلفة والتى أذهبت زينتها روعة الشعر وسحره وبلاغته فى أواخر هذا العصر .

وكما اتسمت معانى الشعر أيضا بالقوة والدقة والابتكار والجدة والعمق والاستقصاء والغزارة فى أول العصر أصبحت ضعيفة تافهة فى آخره .

وكما اتسم الشعر فى أول العصر بروعة التصوير وسعة الخيال والمبالغة أصابه الضعف والتكلف فيها فى آخره .

وامتاز هذا العصر بكثرة الشعراء فيه حيث بلغوا مبلغا من حيث الكثرة والعدد لم يبلغوه من قبل .

النثر الأدبي:

مـــر النـــثر في العصر العباسي الثاني بمرحلتين مختلفتين : الأولـــى مـــرحلة القـــوة والرقي والنهضة والازدهار ، وكانت هذه المـــرحلة في أول العصر العباسي الثاني حيث ظل الكتاب والأدباء محافظيـــن على قوة الكتابة الأدبية وروعتها وجزالة ألفاظها ومتانة أســـلوبها وتناســـق ألفاظها دون المغالاة في زخرف البديع والحلية اللفظية إلا ما جاء عفويا ..

والمرحلة الثانية : مرحلة الضعف والاضمحلال في آخر هذا العصـــر حيـــث اعتنى الكتاب بالزينة اللفظية وتكلف البديع وتصيده وطغيانه على كتاباتهم حتى أفسدوها .

ففـــي المـــرحلة الأولى: اتسعت موضوعات الكتابة وتشعبت فـــنونها وجـــدت مذاهب فنية متميزة في فن الكتابة وراحت الكتابة تـــنافس الشعر وترقى عليه حتى علا شأن الكتاب وارتفعت أقدارهم وأصبح ميدان الكتابة وسيلة لارتقاء المناصب العالية في الدولة مثل الـــوزراة وغـــيرها ... وهناك كم هائل وعدد كثير من الوزراء في مخـــتلف الدويـــلات كـــانوا يجيدون الكتابة والنبوغ فيها وهي التي أوصـــلتهم إلـــى منصـــب الوزارة وغيرها من المناصب العالية في الدولـــة، مـــثل : ابـــن العميد والصاحب بن عباد والقاضي الفاضل وغيرهم.

وكـــان وراء ازدهـــار الكتابة الأدبية ،،في أول هذا العصر

أسباب عديدة ساعدت على تقدمها ونهضتها أهمها :

١- جعــل الكــتابة من أهم مصادر الدخل والرزق في دور الخلفاء والأمراء والوزراء .

٢- تشــجيع الخلفاء والحكام للكتابة والكتاب وإغداق الأموال الطائلة عليهم وتعظيمهم لمكانة الكاتب وعلو قدره .

٣- الثقافة الواسعة والحضارات الأجنبية المتعددة التي وجدت في العصر العباسي الثاني فضلا عن التطور العقلي والفكري.

٤-حركة الترجمة الواسعة التي قامت في هذا العصر وشملت مختلف العلوم والمعارف واطلاع الكتاب على هذه العلوم .

٥- الأجــناس المختلفة للمجتمعات العربية والمتعددة في هذا العصر والامتزاج الشديد بين هذه الأجناس والعناصر واختلافها في الأفكار والثقافة.

٦- اتســاع مجالات الكتابة وتعدد أغراضها فلم تعد قاصرة علــى موضوعات الرسائل الديوانية ورسائل الشوق والعتاب وإنما اتســعت فشملت كل الموضوعات التي تناولها الشعراء في أشعارهم من : مدح وفخر وهجاء ورثاء وغزل وشكوى وغير ذلك .

أمــا العوامــل الــتي أدت إلى ضعف الكتابة في أواخر هذا العصر فترجع إلى ما يلي : -

١- إكــثار الكتاب من المحسنات البديعية والغلو في استخدام الزينة اللفظية والتلاعب بالألفاظ دون العناية بالمعنى وجنوح الكتاب

إلى الألفاظ الركيكة والمعانى الغامضة والموضوعات التافهة .

٢- قلـة تشجيع الحكام والأمراء للكتاب وعدم اهتمامهم بهم وانعـدام الحافز المادى الذى يشجع الكاتب ويجعله آمنا على رزقه وسبل عيشه .

٣- ضـعف الملكـات وطغيان العجمة على العربية ولجوء الحكـام - من غير العرب - إلى إحياء تراثهم القديم ولغتهم القديمة كالفارسية وضعف النزعة العربية .

ومن فنون النثر وألوانه التى برزت على ساحة الأدب فى هذا العصر:

١- النثر الأدبى . ٢- النثر العلمى المتأدب .

٣- النثر العلمى الخالص ، والنثر الأدبى ينقسم إلى قسمين :

أ- الكتابة الأدبية . ب- الخطابة .

والكتابة الأدبية تشمل :

١- الرسـائل الديوانـية : وتشمل كل ما يصدر عن ديوان الإنشـاء أو ديـوان الرسائل تعبيراً عن رأى الخليفة فى كل شئون الدولة ولتصريف أمورها .

٢- الرسائل الإخوانية : وهى الرسائل التى يتبادلها الأشخاص فيما بينهم للتهنئة أو الشكر أو العتاب وغير ذلك .

٣- الرسـائل الأدبـية : وهـى المقالات الأدبية التى تعالج ناحية اجتماعية بأسلوب أدبى وهى مجال الأدباء ويطلق عليها الآن المقال الأدبى .

٤- النـثر الاجتماعى : وهو الذى يعالج القضايا العامة فى المجتمع لإصلاحها وعلاجها أو الدفاع عنها .

٥- النثر القصصي " أو المقامة " وهي التي تأتي في صورة حكايات قصيرة وتدور أحداثها حول الاحتيال لكسب الرزق عن طريق راو وبطل للقصة ويعتني كاتبها باستخدام الألفاظ اللغوية والأساليب البلاغية شعراً ونثراً ومن أشهر كتابها :

بديع الزمان الهمذاني وأبو محمد القاسم الحريري" .

وقد كان النثر في العصر العباسي الأول مقتصراً على الألوان الثلاثة الأولى : الرسائل الديوانية والرسائل الإخوانية والرسائل الأدبية وحينما أقبل العصر العباسي الثاني عرف الأدباء فن المقامات نتيجة لاختلاطهم بالفرس وتعلمهم للغتهم وتنقلهم في بلادهم .

وتعد المقامة : البذرة التي نبت منها النثر القصصي وقد نشأت بسبب الفقر الشديد والحاجة الملحة للمساعدة على أعباء الحياة خاصة بين طبقة الأدباء الذين كانوا يعيشون في فقر شديد فكتبت المقامات لتصوير حياة هؤلاء الأدباء البائسين الذين تركهم الحكام دون عون أو مساعدة أو تشجيع وتركوهم للفقر فريسة وللحاجة والبؤس غنيمة ، فالمقامة صورة خيالية لحديث بين اثنين أو أكثر في موعظة أو بحث أو غير ذلك من الأغراض الأدبية .

وموضوع المقامة موضوع ضئيل وأسلوبها مملوء بالصناعة اللفظية خاصة استخدام السجع وتصيده وتكلفه مع استخدام الألفاظ الغريبة الغامضة مع تزيينها ببعض الحكم والأمثال والشعر .

وأول مـــن عـــرف المقامة أبو بكر (١) بن دريد ثم أحمد بن فارس(٢) الرازى إلا أن مقامات كل منهما لم تصل إلينا ثم جاء بديع الـــزمان (٣) الهمذانـــى وأنشأ أربعمائة مقامة ولم يصل منها إلينا إلا خمســـين فقـــط ثم جاء من بعده ابن نباتة السعدى (٤) ، ثم جاء من بعدهم الحريرى (٥) الذى أنشأ خمسين مقامة ثم جار(٦)الله الزمخشرى وشرف الدين الأصفهانى(٧) الذين عرفا فن المقامة .

فالمقامة : قصة قصيرة خيالية يرويها شخص خيالى ، وتمثل عادات المجتمع وتدور حوادثها حول موضوعات مختلفة وجعل بديع الـــزمان (٨) الهمذانى بطلها أبا الفتح الإسكندرى الذى يمثل الاحتيال فـــى سبيل كسب الرزق وأما الراوية فهو : عيسى بن هشام " وهو

---

(١) توفى سنة ٣٢١ هـ .

(٢) توفى سنة ٣٩٠ هـ.

(٣) توفى سنة ٣٩٧ هـ .

(٤) توفى سنة ٤٠٥ هـ .

(٥) ولد سنة ٤٤٦ هـ و توفى سنة ٥١٦ هـ.

(٦) توفى سنة ٥٣٧ هـ .

(٧) توفى سنة .

(٨) هـــو أبو الفضل أحمد بن الحسين ولد فى مدينة همذان بفارس ونسب إليها وأجاد اللغة العربـــية والفارســـية ، وتتلمذ على الصاحب بن عباد ، وقيل إنه شيعى وقيل إنه كان سنيا وحدثـــت مـــناظرة بينه وبين الخوارزمى وكان من أعظم شيوخ الأدب فتغلب عليه وظهر شـــأنه واســـتقر فى هراة وتزوج بنت أحد أثريائها ومات بها سنة ٣٩٣ – ٣٩٨هـ ، وكانت ولادتـــه ســـنة ٣٥٧ هـ ولكن الصراع الذى دار بينه وبين الخوارزمى يؤيد أنه كان سنى المذهب .

شخص بليغ يكشف أسرار البطل ويحذر الناس منه .

والمقامـــة لا تبلغ درجة القصة لقصرها وقلة حوادثها وانعدام تحليل النفسيات فيها .

وهو يكثر فيها من السجع والصناعة البديعية المتكلفة ولكن لا يعاب عليه ذلك لأنه كان متأثراً بعصره وخصائص الأدب فيه .

والأكـــثرون علـــى أن بديع الزمان هو أول من ابتكرها من كتاب العربية وأيد الحريرى هذا الرأى تأييداً يزيل الشك من الأفهام كما ذهب القلقشندى صاحب كتاب صبح الأعشى إلى مثل ذلك فقال: " إن أول مـــن فـــتح باب عمل المقامات علامة الدهر وإمام العصر الأديب البديع الهمذانى فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه وهى فى غاية البلاغة وعلو الرتبة فى الصنعة "[1].

(1) صبح الأعشى جـ ١٤ صـ ١١٠ .

نموذج من مقاماته : "المقامة الأولى القريضية"

حدثنا عيسى بن هشام قال :

طرحتني النوى مطارحها ، حتى إذا وطئت جرجان الأقصى، استظهرت على الأيام بضياع أجلت فيها العمارة ، وأموال وقفتها على التجارة ــ وحانوت جعلته مثابة ، ورفقة اتخذتها صحابة ، وجعلت للدار ، حاشيتي النهار ، وللحانوت مابينهما ، فجلسنا يوما نتذاكر القريض وأهله وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ، ينصت وكأنه يفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم ، حتى إذا مال الكلام بنا ميله ، وجر الجدال فينا ذيله قال : قد أصبتم عذيقة [١] ، ووافقتم جذيلة [٢]، ولو شئت للفظت وأفضت ، ولو قلت لأصدرت وأوردت، ولجلوت الحق فى معرض بيان يسمع الصم وينزل العصم[٣] فقلت : يا فاضل : ادن فقد منيت ، وهات فقد أثنيت . فدنا وقال : سلونى أجبكم . فقلنا : ما تقول فى امرئ القيس؟ قال : هو أول من وقف بالديار وعرصاتها ، واغتدى والطير فى وكناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، ولم يقل الشعر كاسبا ، ولم يجد القول راغبا ، ففضل من

---

(١) العذيق : تصغير العذق وهو كباسة التمر من النخلة ، والتصغير هنا للتعظيم .

(٢) والجذيل : تصغير الجذل وهو ما عظم من أصول الشجر بعد ذهاب الفروع ومنه المثل المشهور : "أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب" ويضرب هذا المثل لمن تباهى بكرمه واشتهار نفعه.

(٣) العصم : جمع اعصم وهو الوعل تيسى الجبل .

تفتق للحيلة لسانه وانتجع للرغبة بنانه .قلنا : فماذا تقول فى النابغة ؟ قـال : ينسـب إذا عشـق ، ويسلب إذا حنق ، ويمدح إذا رغب ، ويعـتذر إذا رهـب ، ولا يـرمى إلا صائباً . قلنا : فماذا تقول فى زهـير؟ قـال : يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيـبه . قلنا : فما تقول فى طرفة ؟ قال : هو ماء الأشعار وطينتها وكـنز القوافـى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أعـلاق [١] خزائـنه ، قلنا : فما تقول فى جرير والفرزدق وأيهما أسـبق؟ قال جرير أرق شعراً أو أغزر غزراً [٢]. والفرزدق أمتن صخرا وأكثر فخراً . وجرير أوجع هجوا وأشرف يوما ، والفرزدق أكثر[٣] رويا وأكرم قوما . وجرير إذا أنسب أشجى[٤] وإذا ثلب أردى وإذا مـدح أسنى[٥]، والفرزدق إذا افتخر أجزا [٦] وإذا احتقر أرزى وإذا وصـف أوفـى . قلـنا : فما تقول فى المحدثين من الشعراء والمتقدميـن منهم ؟ قال : المتقدمون أشرف لفظاً واكثر من المعانى حظـاً والمتأخرون ألطف صنعا وأرق نسجا . قلنا : فلو رويت من

---

(١) الأعلاق : جمع غلق وهو ما يغلق به الباب (الكالون).

(٢) غزرا: مصدر : غزر .

(٣) أكثر رويا : أى أنه متنوع القوافى .

(٤) أشجى : أحزن .

(٥) أسنى : رفع .

(٦) أجزا : أجزأ : كفى وأغنى.

أشـــعارك ورويت لنا من أخبارك ، قال : خذهما في معرض واحد وقال :

إمـــا تـــروني أتغشـــى طمـــرا ... ممتطـــيا في الضر امرأ إمرا (١)
مضـــطبنا علـــى الليالي غمرا ... ملاقـــيا مـــنها صروفا حمرا (٢)
أقصـــى أماني طلوع الشعرى ... فقـــد عنيـــنا بالأمـــاني دهرا (٣)
وكـــان هـــذا الحـــر أعلى قدرا ... ومـــاء هذا الوجه اغلى سعرا (٤)
ضـــربت للســـرا قبابا خضرا ... فـــي دار دارا وإوان كســـرى (٥)
فانقلـــب الدهـــر لبطـــن ظهرا ... وعـــاد عرف العيش عندي نكرا
لـــم يـــبق من وفرى إلا ذكرى ... ثـــم إلـــى الـــيوم هلـــم جـــرا
لـــولا عجـــوز لي بسر من رأ ... وأفـــرخ دون جـــبال بصرى (٦)
قد جلب الدهر عليهـــم شـــراً ... قتلت يا سادات نفسي صبـــرا

---

(١) الحمر : جمع حمراء ويريد صروفا شديدة الوقع.

(٢) الشعرى : نجم يطلع في الصيف ولا يحتاج الفقير العارى فيه إلى ثياب .

(٣) الحر : يريد نفسه .

(٤) السرا : الرخاء . ودارا وكسرى : من ملوك الفرس . وإيوان كسرى : بهو عظيم كان فـــي قصـــره الأبـــيض بالمدائـــن وبه كان يسمى القصر كله. وخفف إيوان بحذف يائه : للضرورة الشعرية

(٥) الوافر : الغنى وكثرة المال. ذكرى الشيء : التحدث عنه بعد زواله .

(٦) ســـر مـــن رأى : اسم لمدينة سر من رأى ، التي بناها الخليفة المعتصم العباسي شمال بغـــداد . وبصرى : بلدتان : واحدة قرب بغداد والثانية من بلاد حوران بالشام ولعله يريد الأولى

قال عيسى بن هشام : فأنلته[١] ما تاح ، وأعرض عنا فراح .

فجعلت أنفيه وأثبته ، وأنكره وكأني أعرفه ، ثم دلتني عليه ثناياه ، فقلت : الإسكندري والله ، فقد كان فارقنا خشفا [٢]. ووافنا جلفا [٣]، ونهضت على أثره ، ثم قبضت على خصره وقلت : ألست أبا الفتح ؟ ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ فأي عجوز لك بسر من رأى فضحك وقال :

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغرور[٤]
لا تلتزم حالة ولكن در بالليالي كما تدور

***

(١) ما تاح : ماتهيأ وأمكن .
(٢) الخشف : ولد الظبية ويريد فارقنا صغيرا .
(٣) الجلف : الرجل الجافي الغليظ الخلق.
(٤) الغرور : الدنيا لأنها تغر بمظاهرها .

أمـــا النثر العلمي الخالص : فهو الذى يتناول الحقائق العلمية المجردة ويخاطب العقل ويخلو من الصور والخيال والعاطفة ويتميز بدقة الألفاظ ولا تظهر فيه شخصية الكاتب ومجاله : البحث العلمى.

وأمـــا النـــثر العلمـــى المتأدب : فهو الذى يتناول فيه الكاتب فكرته العلمية مستخدما الألفاظ الأنيقة والأسلوب الشيق وقد يستخدم الصور والخيال حتى يتخفف من الجفاف العلمى والصرامة المنهجية للبحث العلمى ، فهو يجمع بين : العلم والأدب ، العلم فى الموضوع والأدب فى الأسلوب .

هـــذا وقـــد عرفـــت الخطابة : وازدهرت فى أوائل العصر العباســـى الثانى لأسباب عديدة دعت إليها الحاجة سواء ما كان منها سياســـيا أو دينيا وعرفت الخطابة بلونيها : الدينى والسياسى وساعد علـــى ازدهارهـــا : حـــرية القول وبلاغة التعبير والدوافع السياسية والدينية والمناسبات السياسية والاجتماعية .

إلا أنهـــا ضـــعفت هـــى الأخرى فى أواخر العصر تبعا لقلة الحاجة إليها واستقرار الأمور وسيطرة الفرس والأتراك على شئون الـــبلاد وهـــم أعاجم حتى كادت الخطابة تقتصر على خطب الجمعة والعيدين .

***

من النثر الفنى لابن العميد [1]: –

من كتاب له فى التهديد واللوم:

كتابى وأنا مترجح [2] بين طمع فيك ويأس منك وإقبال عليك، وإعراض عنك ، فإنك تدل[3] بسابق حرمة وتمت بسالف[4] خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ، وتقتضى محافظة وعناية ؛ ثم تشفعهما بحادث غلول[5] وخيانة ، وتتبعهما بآنف[6] خلاف ومعصية.

وأدنى ذلك يحبط [7] أعمالك ، ويسحق كل ما يرعى لك ، لا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلا لصدك وأوخر أخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لا صطلامك[8] واحتياجك وأثنى ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن [9] امتثال بعض المأمور فيك ، ظنا بالنعمة عندك ومنافسة فى الصنيعة [10] لديك

([1]) هو: أبو الفضل محمد بن الحسين العميد كاتب المشرق ووزير عضد الدولة البويهى وصاحب طريقة الشعر المنثور توفى سنة ٣٦٠هـ .

([2]) مترجح : متردد مضطرب .

([3]) الإدلال : الانبساط وفرط الثقة بالمدل عليه .

([4]) تمت : تتصل وتتوسل .

([5]) الغلول : الخيانة.

([6]) آنف : يريد : جديد .

([7]) يحبط : أعمالك : يبطلها .

([8]) الاصطلام : الاستئصال ومثله الاجتياح .

([9]) الامتثال : الطاعة والانقياد .

([10]) الصنيعة : الإحسان والكرم .

وتأمـــيلاً لفيئـــتك[١١] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك فقد يغـــرب[١٢] العقل ثم يؤوب ، ويغرب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثـــم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ويضاع الرأى ثم يستدرك ويسكر المـــرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو . وكل ضيبعة إلى رخاء وكـــل غمـــرة [١٣] فـــإلى انجلاء ، كما انك أتيت من إساءتك بما لم تحتســـبه أولياؤك فلا بدع أن تأتى من إحسانك بما لم ترتقبه أعداؤك ... وسأقيم على رسمى [١٤] فى الإبقاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاســـتيفاء[١٥] والمطاولـــة ما أمكن ، طمعاً فى إنابتك [١٦]، وتحكيما لحسن الظن بك.

فلست أعدم فيما ظاهره من إعذار[١٧] ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فإن يشأ الله برشدك ويأخذ بك إلى حظلك ويسددك ، فإنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير ".

---

(١١) لفيئتك : لرجوعك وطاعتك .

(١٢) يغرب وعزب : يذهب ويغيب .

(١٣) الغمـــرة : التغطية مثل موجة البحر تعمر السابح ثم تتكشف عنه والمراد هنا : المرة من حدوث الشدائد والمحن والمصائب.

(١٤) الرسم : أى ما رسمه لنفسه من تأجيل المؤاخذة والعقاب على الذنب.

(١٥) الاستيفاء : التمهل والانظار.

(١٦) الإنابة : الرجوع عما هو عليه .

(١٧) من إعذار : أى من عمل ينفى عذرك فى المعصية ويكفل الرضا عنك.

"الدولة الحمدانية"

طبيعة الدولة الحمدانية وبيئتها : -

يرى بعض المؤرخين أن مولد الإمارة الحمدانية في الموصل كان في سنة ٢٩٣ هـ وهى السنة التى أسند فيها الخليفة المكتفى بالله العباسى أمر هذه الولاية إلى عبد الله بن حمدان الملقب بأبى الهيجاء ولكـــن أبا الهيجاء لم يحتفظ بهذه الإمارة حيث عزله الخليفة المقتدر سنة ٣٠١ هـ ثم قبض عليه وأدخله السجن وبقية إخوته سنة ٣٠٣ هـ وفـــى سنة ٣١٧ هـ أرسل إليه الخليفة المقتدر من قتله وصلب رأسه لاشتراكه فى مؤامرة لخلعه وتولية القاهر " [١] .

وفـــى سنة ٣١٨ هـ تولى سعيد ونصر أبنا حمدان أمر الموصل واســـتمر حكمهما حتى سنة ٣٢٣ هـ حينما قتل الحسن بن أبى الهيجاء عمـــه ســـعيداً وانتصر على قوات الخليفة وبسط سلطانه على المنطقة وهذا التاريخ هو التاريخ الحقيقى لإقامة الدولة الحمدانية فى الموصل.

واستطاع سيف الدولة الحمدانى أن يقيم إمارة الحمدانيين فى حلـــب سنة ٣٣٣هـ ، وبهذا سيطر الحمدانيون على حلب والموصل وماجاورهما من بعض البلاد ، فكان حكم الحمدانيين فى دولتهم التى ضمت الشام والجزيرة .

وقد جعل الجغرافيون العرب بلاد الشام أقساماً خمسة وهى: قنســـرين ودمشـــق والأردن وفلســـطين وحمص ، وقد كانت أقاليم

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ صـ ١٤٧ - ١٤٨ .

قنسرين ودمشق وحمص هى المناطق والأقاليم الشامية التى عاشت تحت ظلال الحمدانيين .

وكانـــت مديـــنة حلب بمثابة عاصمة أقليم قنسرين فضلا عن بعــض المـــدن الهامـــة الأخـــرى مـــثل : أنطاكية ومنبج ومرعش واسكندرونه وحماة وجوسيه وشيراز ومعرة النعمان ومعرة مصرين ورصـــافة هشام وبالس وقنسرين وجوسيه وأفاميه ووادى بطنان وهذه المـــدن كلهـــا كانت من الروعة والسحر بمكان حيث حباها الله سبحانه وتعـــالى وقد جل من صنعت يداه - أرضاً طيبة وتربة خصبة وانهاراً جارية وخضرة يانعة وجواً صافياً رائعاً وانتشرت البساتين فى ربوعها والقصور والمساجد فوق أرضها .

فمدينة حلب كانت من أروع المدن وأكثرها خضرة ونضارة وأكـــثفها شـــجراً وأحلى ماء وأطيب شواء وأجود تربة وأرضا وقد افتتن بها الشعراء وبطبيعتها وبمسجدها الجميل ذى المآذن السامقة .

ومديـــنة منـــبج : مدينة البحترى وأبى فراس - طيبة الهواء قلـــيلة الأدواء وليلها ساحر وهواؤها عليل كأنها جنة الله فى الأرض وقـــد أثـــرت فى الشعراء برقتها وسحرها فجاء شعرهم رائعاً عذباً رقيقاً كشعر أبى فراس .

ومديـــنة أنطاكـــية : متصلة الرياض متفجرة الأنهار تكسوها أشـــجار الزيتون ولها سور عظيم وفيها كنائس كثيرة وقد منحها الله تعالى مزيداً من الجمال والحسن والبهاء .

ومديـــنة حمـــاة : هـــى مديـــنة ذات حسن وجمال على نهر العاصى وهى مدينة جميلة حسنة جيدة الهواء .

ومديـــنة معـــرة النعمان [١]: تزخر بالأشجار المثمرة وغير المثمرة وفيها ولد الشاعر أبو العلاء المعرى .

ومدينة قنسرين : التى ينسب إليها الإقليم كانت أكبر من حلب وقد أقام فيها المسلمون حينما قاموا بفتح بلاد الشام .

وقـــد كـــثرت الأنهـــار والبحيرات فى هذا الإقليم فضلا عن الجبال الشامخة التى انتشرت فوق أراضيه فمن الأنهار : نهر الفرات والعاصى ونهر جيحان ونهر سيحان ونهر فويق ونهر أرسناس ومن البحـــيرات : بحيرة أفامية وبحيرة تبقرا قرب أنطاكية ويطلق عليها القلقشندى بحيرة أنطاكية وبحيرة أترنيت فى تركيا .

وتقـــع فى هذا الإقليم كثير من الثغور ومواقع الحروب التى قامـــت بيـــن الحمدانييـــن والروم مثل : طرسوس وأدنة ومرعش والمصيصة وزبطرة وملطية وغيرها .

أمـــا إقلـــيم دمشـــق : فعاصمته مدينة دمشق ويضم بيروت وطرابلس وصيدا وبانياس وعرفة والبقاع وبعلبك والعوطة والجولان وغيرها.

وإقلـــيم حمـــص : وعاصمته مدينة حمص ويضم : اللاذقية وأنطرســـوس وبلنياس وجبلة وحصن الخوابى ويجرى نهر العاصى

---

(١) وهى منسوبة إلى النعمان بن بشير الصحابى الجليل وكانت تسمى قديما ذات القصور.

فى منطقته وهى من أفضل بلاد الشام هواء وبها بحيرة جميلة يربى فيها الأسماك وتكثر فيها الطيور[١] ".

أمـــا الإقليم الثانى " إقليم شمال الجزيرة " : وهو إقليم شمال العـــراق والذى تقع " الموصل" فى وسطه ، وقد قسمه الجغرافيون أقساماً ثلاثة : ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر .

وعاصمة ديار ربيعة :" الموصل [٢]" وهى مدينة طيبة الهواء حســنة البـــناء غير أن بساتينها بعيدة وماء النهر بعيد المستقى من دجلة[٣]".

والموصل مدينة مشرقة ساحرة فاتنة شاهقة المبانى استطاعت أن تلهـــم الشـــعراء وتؤثـــر فيهم تأثيراً كبيراً حيث راحوا يصفون طبيعتها وصفاً رائعاً أمثال : السرى الرفا والخالدين وهم من أبنائها.

أمـــا ديار بكر : الإقليم الثانى من إقليم شمال الجزيرة : فكان عاصـــمته " آمـــد " ومـــن مدن هذا الإقليم ميافارقين وهى بلد سيف الدولـــة الحمدانى وفيها دفن وهى أشهر مدينة فى ديار بكر وتمتاز بجـــو ساحر ورائع وكما يقول ياقوت الحموى فيها : " لا يبيت أحد مهموما فى ميافارقين إلا النادر "[٤].

---

(١) صبح الأعشى للقلشندى جـــ ٤ صـــ ١١٢ .

(٢) سميت بالموصل : لأنها وصلت بين الجزيرة والفرات .

(٣) صـــ ١٣٧ أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقرى ط ١٩٠٦ ليدن .

(٤) معجم البلدان جـــ ٤ صـــ ٧٠٦.

أمـــا ديـــار مضر : الإقليم الثالث من إقليم شمال الجزيرة : فعاصمته مدينة الرقة " ، وهى مدينة رائعة ساحرة تزخر بالأشجار وتمتلئ بالبساتين وكانت تسمى بالرقة البيضاء لجمالها وحسنها ومن مدن ديار مضر " حران" وهى مدينة رائعة حيث كانت متنزها يذهب إلـــيه الناس للنزهة لجمال جوها ومزارعها ، ومن مدن ديار مضر أيضا : مدينة " الرها" التى كانت تشتهر بكنيستها العجيبة ويروى أن بها منديلا كان المسيح قد مسح وجهه فيه فانطبعت فيه صورته .

فهذه هى بيئة الدولة الحمدانية وتلك هى طبيعتها الرائعة التى توحى للشعراء بالقول وتفتح أفواههم بالنظم وتمدهم بفيض زاخر من الجمـــال والحسن والرقة ويستلهم الشاعر منها وحيه وخياله وفكره ولهـــذا تأثر الشعر فى عهد الحمدانيين ببيئتهم وتلون بتلونات بيئتهم فـــنظم الشـــعراء فى الروضيات والمائيات والزهريات التى ظهرت مستحدثة فى الشعر العربى وقتئذ .

الحالة السياسية فى عصر الحمدانيين :

ينتسب الحمدانيون إلى قبيلة " تغلب " العربية المشهورة الضاربة فى أعماق التاريخ العربى هى وأختها قبيلة بكر بن وائل ، فالحمدانيون عرب خلص فيهم كثير من الصفات العربية السامية وكان من قبيلتهم فى الجاهلية كثير من الشعراء البارزين وأشهرهم عمرو بن كلثوم أحد أصحاب المعلقات .

فالحمدانيون عرب خلص كرام المحتد وقال بذلك أغلب المؤرخين والرواة والشعراء فى أشعارهم إلا أننا رأينا الهمذانى يجعلهم من موالى قبيلة تغلب(١) وهذا الرأى عار عن الصحة لأن الهمذانى قرمطى صريح وبين الحمدانيين والقرامطة عداء طويل مستحكم حيث كان الحسين بن حمدان بن حمدون سيفا مصلتا على رقاب القرامطة وطاردهم فى كل مكان وأجرى دماءهم أنهاراً وأعمل فيهم القتل والسبى والأسر سنين طويلة مما يجعلنا نرد رأيه ولا نأخذ به ".

على كل فإن الحمدانيين ينتسبون إلى قبيلة تغلب العربية الشهيرة ولا عبرة برأى من أنكر ذلك فشهادة العدو مردودة .

وكانت عشائر الحمدانيين تسكن إلى جوار الموصل وجدها حمدان بن حمدون كان له شأن كبير فى تلك الديار وكان له خمسة أبناء هم : أبو العلاء سعيد ، والحسين وإبراهيم وداود وأبو الهيجاء

---

(١) صفة جزيرة العرب صـ ١٣٣ الهمذانى أبو محمد الهمذانى جـ ١ ليدن ١٨٨٤.

عبد الله ، وكان لحمدان بن حمدون دور كبير فى الأحداث السياسية بالموصل منذ سنة ٢٦٠ هـ - ٨٧٣ م وكان على علاقة طيبة بهارون الخارجي وبعد عام أو عامين استولى على قلعة ماردين ولكن الخليفة المعتضد بالله أخرجه منها سنة ٢٨١هـ .

وكان لأبنائه الخمسة شأن كبير فى الدولة العباسية وتقلدوا كثيرا من المناصب فى بغداد وغيرها خاصة حينما دخل الحسين بن حمدان فى طاعة الخليفة وحارب هارونا وغلبه فأطلق سراح حمدان واحتل الحسين وإخوته مكانة عند الخليفة العباسى ضمنت مستقبل أسرتهم حيث تولى الحسين بن حمدان ديار ربيعة مدة من الزمن ثم يتولى بعد ذلك قم وقاشان فى أقصى خراسان ويتوفى سنة ٣٠٦ هـ وأبو العلاء سعيد يتولى أمر نهاوند سنة ٣١٢ هـ والموصل من سنة ٣١٧ هـ إلى سنة ٣١٩ هـ وعبد الله أبو الهيجاء يتولى أمر الموصل بعد أبى العلاء ويتولى إبراهيم ديار ربيعة من سنة ٣٠٧ هـ إلى سنة ٣٠٨ هـ ويتولى داود ديار ربيعة سنة ٣٠٩ هـ ومابعدها .

فنرى أبناء حمدان يحتلون المناصب العالية والمراكز الهامة فى الدولة العباسية إلا أن الحسين كان أكثرهم شجاعة وأبا الهيجاء كان أحسنهم حظاً لأنه تولى الموصل سنة ٢٩٣ هـ وظل بها إلى أن قتل سنة ٣١٧ هـ وترك عليها ابنه الحسن الذى ضم إليها بلاد ربيعة واستطاع أن يكون نواة للدولة الحمدانية بعد أن قتل عمه سعيداً وهزم قواد الخلافة وبسط سلطانه على الموصل وما حولها سنة ٣٢٣ هـ مع

أن البعض يؤرخ للدولة من سنة ٣١٧ هـ أو سنة ٣١٨ هـ.

واستطاع أبناء حمدان أن يحيطوا بالدولة من كل جانب وأن يتقربوا إلى الخلفاء العباسيين حيث وجد الحسن بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان الفرصة مواتية وتقرب من الخليفة العباسى المتقى بالله حيث رضى عنه الخليفة ولقبه بناصر الدولة وجعله أمير الأمراء ولقب أخاه الأصغر عليا بن أبى الهيجاء بلقب سيف الدولة .

ثم سار ناصر الدولة وأمير الأمراء بجيش كثيف جرار إلى بغداد بعد أن احتلها البريديون وخرج منها ومعه الخليفة وأخوه سيف الدولة وظل يتعقبهم حتى البصرة وكان ذلك فى سنة ٣٣٠هـ .

ثم راح الحسن يلى أمر بغداد ويستوزر أبا العباس بن عبد الله الأصبهانى ويضيق الخناق على الخليفة وينتزع أملاكه .

والحسن هو مؤسس الشعبة الحمدانية فى الموصل وديار ربيعة وما حولها وديار مضر وظل حاكما إلى أن أسقطه ابنه أبو تغلب الغضنفر سنة ٣٥٦هـ وأودع أباه ناصر الدولة السجن ، إلا أن الحرب قامت بين أبى تغلب وبين أخيه حمدان بسبب اعتقال أبى تغلب لأبيه وانتهى الأمر بإطلاق سراح ناصر الدولة الذى مات بعد أشهر قليلة ، ثم راح أبو تغلب بجيش الجيوش لمحاربة الروم مرات عديدة وكانت أهم موقعة له مع الروم سنة ٣٦٢هـ وهى السنة التى أسر فيها ألد مستق ملك الروم ولم يزل ألد مستق عنده أسيرا حتى مات سنة ٣٦٣هـ .

ثـم اسـتولى عضـد الدولة بن بوبه على بغداد سنة ٣٦٧هـ فاستعان بختيار بأبى تغلب الذى راح يناصر صهره فخسرا المعركة معـا وقـتل بختـيار واستمر عضد الدولة فى طريقه حتى وصل الموصل وفتحها وطرد أبا تغلب الذى توفى فى سورية سنة ٣٦٩هـ ودخـل بعد ذلك أخواه إبراهيم أبو طاهر ، والحسن أبو عبد الله فى طاعـة البويهييـن فأعيدا بمساعدتهم إلى الموصل سنة ٣٧٩هـ وحكما بلادهـم ولكـن حكمهم لم يمكث طويلا حيث قتل أبو طاهر فى إحدى المعارك ووقع أخوه أبو عبد الله فى الأسر فى يد المروانيين وانقرضت شعبة الحمدانية بالموصل سنة ٣٨٠هـ ودخلت فى حوزة البويهيين .

وكان سيف الدولة الحمدانى قد استطاع أن يستولى على حلب وحمـص مـن يـد الإخشـيديين سنة ٣٣٣هـ ويؤسس بذلك شعبة الحمدانيـن فى حلب بعد أن انتزعها من يد أحمد بن سعيد الكلابى وسـيطر علـى شمال الشام ، وقضى نحو ثلاثة وعشرين عاما فى حـرب الروم والثائرين والطامعين فى مملكته فضلا عن حبه للشعر والشـعراء وتشـجيعه لهـم وإكـرامهم حتى لقد سك قطعة ذهبية خصصـها للشـعراء وزنها عشرة مثاقيل وعليها اسمه وصورته " وكانت وفاته فى سنة ٣٥٦هـ - ٩٦٧م فى حلب فى العاشر من صفر بعـد حـياة عريضة من المجد والشرف والحروب والانتصارات " وكـان سـيف الدولة قد جمع من نفض الغبار الذى اجتمع عليه فى غـزواته شيئا وعمله لبنة بقدر الكف وأوصى أن يوضع خده عليها

في قبره ونفذت وصيته ونقل جثمانه إلى ميافارقين مسقط رأسه " .

ثـم تولـى ابنه سعد الدولة أبو المعالي شريف حكم حلب وخاض الكثير من الحروب التي امتدت طوال حكمه حتى سنة ٣٨١هـ .

ثـم تولـى الحكـم بعده ابنه سعيد الدولة أبو الفضائل تحت وصـاية مملوك الأسرة ووزيرها لؤلؤ ثم تزوج بعد ذلك بنت لؤلؤ وراح يحـارب الفاطميين باستعانته بالروم الذين هزموا الفاطميين واضطر إلى عقد معاهدة مع البيزنطيين حتى يمكن لنفسه في دولته.

ثـم طمع لؤلؤ في حكم حلب فسمم سعيد الدولة وزوجته سنة ٣٩٢هـ وحكم عامين باسم ولدى سعيد الدولة : أبو الحسن على وأبى المعـالي شريف ثم أبعدهما إلى القاهرة واستقل بالحكم وانتهت بذلك الشـعبة الحمدانـية في حلب سنة ٣٩٤هـ ثم أعطى الخليفة الفاطمي الحـاكم لقـب " مرتضـى الدولة " للمنصور بن لؤلؤ الذي خطب للفاطميين في حلب وهو تاريخ دخول حلب في حوزة الفاطميين .

وممـا سبق يتضح لنا أنه كانت للحمدانيين إمارتان لا إمارة واحـدة الأولى في الموصل من سنة ٣٢٣هـ أو من سنة ٣١٧هـ إلى سنة ٣٨٠هـ أو سنة ٣٦٨هـ .

والثانـية في حلب والشام من سنة ٣٣٣هـ إلى سنة ٣٩٤هـ إلا أن الإمارتيـن كانتا متداخلتين سياسيا وعلميا وثقافيا وبشريا وكانت المظاهـر العامـة مظاهر مشتركة وواحدة مما يسمح لنا أن نعدهما دولـة واحـدة وإمـارة واحـدة خاصة وأن أسرة واحدة هي أسرة الحمدانيين هي التي كانت تتولى الحكم في هاتين المنطقتين أو هاتين

الشـــعبتين فالدولـــة واحدة وإن تكونت من شعبتين حتى وإن كانت الشعبة الحمدانية فى الموصل قد انتهت سنة ٣٦٨ هـ وبقيت شعبتهم وإمـــارتهم فى حلب ثابتة الأركان قوية البنيان حتى سنة ٣٩٤هـ أى بعد نهاية إمارة الحمدانيين فى الموصل بحوالى ثلاثين عاما.

فقـــد توحدت الشعبتان والإمارتان فى الاسم والتعاون الأدبى خاصة فى عهد ناصر الدولة وسيف الدولة ولدى أبى الهيجاء .

ومهما يكن فإن الدولة الحمدانية على قصر مدتها – حيث لم تـــتجاوز الســـبعين عاما من سنة ٣٢٣هـ – إلى سنة ٣٩٤هـ – فإنها كانت ألمع الإمارات الإسلامية التى برزت على ساحة القرن الرابع الهجـــرى سياســـيا وحربـــيا وأدبيا والشعر منه بوجه خاص وكانت الحـــروب الطاحنة والكثيرة التى خاضتها الدولة الحمدانية وما تمتع بـــه عهدها من كثرة الحروب كان لها الأثر الكبير والأول فى كثرة شـــعر الحـــروب وتصـــوير المعارك الحربية كما هو ظاهر بصفة خاصة فى أشعار المتنبى وأبى فراس الحمدانى وغيرهما من شعراء الحمدانيين ، فى صورة ملاحم شعرية رائعة .

ويذهـــب البعض إلى أن الحمدانيين كانوا شيعة ولكننا حينما نتصفح سيرتهم وتاريخهم وأعمالهم فإننا نجدهم يعتقدون مذهب أهل السنة والجماعة خاصة أخبار سيف الدولة الحمدانى وما أثر عنه وما قاله الشعراء فيه ، وعلى فرض تشيعهم فإنهم لم يعتقدوا مذهبا معينا من مذاهب الشيعة ولم يؤثر عنهم غلو أو إسراف فى عقيدتهم ، فقد كان تشييعهم – إن كانوا شيعة – تشيع عاطفة وحب لآل البيت وكان تشيعا خفـــيفا ولـــم يكونوا كآل بويه الشيعة المغالين فى تشيعهم والمتعصبين

لمذهـــبهم[١].إلا مـــا أثر عن ناصر الدولة الذى كان شيعيا متطرفا منذ نشأتـــه.

ومـــع ذلـــك فقـــد كانـــت بلاد الشام تعتقد مذهب أهل السنة والجماعة ولم يكن بها رافضى إلى أن هجم عليها الروم سنة ٣٥١هـ وقـــتلوا معظم أهلها فنقل سيف الدولة إليها جماعة من الشيعة فغلب على أهلها التشييع [٢].

وإذا كـــان الحمدانـــيون قد أظهروا التشيع واصطنعوا مذهب الشيعة فإن ذلك لا يتعدى التشيع الظاهرى دون عقيدة أو مذهب حتى يـــتخذوا التشـــيع وسيلة من وسائلهم للوصول إلى الحكم والسلطان وحـــتى يأمـــنوا جانـــب الكثرة الشيعية المتغلغلة فى بغداد وفارس والضاربة فى المغرب وهم فى نفس الوقت مطمئنون إلى أهل السنة من سكان الموصل وحلب لأنهم عرب مثلهم [٣].

ومـــع ذلـــك فقـــد وجـــد للتشيع شواهد فى أشعار الشعراء الحمدانييـــن الذيـــن مدحوا بنى حمدان مثل : السرى الرفاء وكشاجم والصـــنويرى وغـــيرهم من الشعراء ، حيث كان هناك بعض الأثر للعقـــيدة الشيعية فى وجود الشعر المذهبى بعد ركود واضح أصاب هذا الشعر فى العهود السابقة لدولة الحمدانيين .

---

(١) صـــ ٢٦٧ أخبار الدول وآثار الأول للقرماني .

(٢) جـــ ١ صـــ ٢٧٩ – ٢٨٠ إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء .

(٣) صـــ ١٢٧ فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين .

الحالة الاجتماعية :

وإذا كانـــت هـــذه هي أهم مظاهر الحياة السياسية فى الدولة الحمدانـــية فـــإن الحياة الاجتماعية لم تكن أقل شأنا وأثرا فى تاريخ الدولـــة وحـــياة الحكـــام والمحكومين ، فقد كانت الحياة الاجتماعية مـــتعددة الجوانب مختلفة الأحوال بما جعلها تؤثر فى الحياة الثقافية والأدبية والشعر بوجه خاص ووضعت هذه الحياة بصماتها واضحة علـــى الأدب والشعر وأثرت فيهما تأثيراً قوياً وواضحاً وتجلى ذلك فى الآتى : –

١– فقـــد كـــان الحمدانيون متعصبين تعصباً قوياً لعروبتهم وقوميـــتهم وديـــنهم ضـــد الروم والفرس والترك والقبائل المخالفة والخارجة عليهم ولهم مع ذلك حروب خاضوها ضد الفرس والروم وضـــد بنى كلاب وبنى عقيل وبنى قشير وبنى عجلان وظهر ذلك كلـــه فـــى أشـــعار الشعراء الذين مدحوهم كما هو فى شعر المتنبى وكشاجم والسرى الرفاء وأبى فراس الحمدانى وغيرهم .

٢– الإكـــثار من الأتراك وغلمانهم الذين لعبوا دوراً هاما فى سياسة الدولة وحروبها والخروج عليها بل وتملكهم لبعضها .

حيث أكثر كل من ناصر الدولة وسيف الدولة فى قيادة الحروب مـــن الغلمان الأتراك الذين ربوهم ودربوهم على فنون الحرب والقتال أمثال : يماك وقرغويه ونجا ورقطاش ، حيث كان سيف الدولة يحبهم ويحزن لفراقهم ويعزيه الشعراء إذا افتقد واحداً منهم .

ووجـد الشـعر فى رثاء المملوك الفقيد كقول المتنبى يعزى سيف الدولة فى مملوكه " يماك" الذى توفى سنة ٣٤٠ هـ فى قصيدته المشهورة [١].

لا يحزن الله الأمير فإننى   سآخذ من حالاته بنصيب

وقـد عـرف عـن هؤلاء المملوكين الخروج على أسيادهم والطمع فى أملاكهم مثلما حدث مع المملوك " نجا" الذى خرج على سـيف الدولة وملك " ميافارقين" وأرمينية " سنة ٣٥٣ هـ ثم استسلم لسيده بعد ذلك وقتله غلمان سيف الدولة أمامه .

ومـثلما حرج " قرغويه" على سعد الدولة بن سيف الدولة واستقل بحلب بضع سنين .

كذلـك خـرج الغلمان الأتراك على ناصر الدولة بالموصل وثاروا عليه مرات عديدة وتبعا لذلك راح الشعراء ينظمون الأشعار التى تحكى هذا الخروج وتلك الثورات من جانب المملوكين ويهنئون الحكـام بالقضاء عليهم وإخماد ثوراتهم وتشير قصيدة السرى الرفاء إلى ذلك فى تهنئة لناصر الدولة :

أعـاد الله عـيدك بالسـرور   وفـى الحـال الجلـيلة والحبور
دفـاع الله عـنك أعـم نفعـا   وأحلى فى القلوب وفى الصدور
كبا الأعداء إذا راموك جهـلا   فقلنـا للحيـاة وللثغور[٢]

---

(١) صـ   ديوان المتنبى.
(٢) صـ ١٣٧ ديوان السرى الرفاء.

٣- هذه القصور الفخمة التي عاش فيها الحمدانيون حيث بنوا كثيراً من القصور التي بلغت حد الروعة والجمال والفن وبلغت الذروة في السحر والجمال والفتنة والروعة وامتلأت بالتحف الثمينة والمناظر الرائعة وأحيطت بالبساتين الناضرة والفوارات الجميلة والمغنين والمغنيات الفاتنات الجميلات اللاتي رحن يصدحن بأصواتهن في جنبات القصور خاصة الجيداء مغنية سيف الدولة الحمداني التي كانت تصدح بصوتها الجميل في جنبات القصر والخمرة تدور على الجالسين والزوار ويتجلى ذلك في كل قصور حلب والموصل على السواء .

فكانت هذه القصور وما تحويه وما هي عليه وما يدور فيها وما يحيط بها منبعا خصبا لخيال الشعراء الذن عاشوا في هذا العصر حيث راحوا يصفون ويبدعون في تصويرهم للقصور وما تضمه وما هي عليه من فن وعمارة والبساتين التي حولها والفوارات وغيرها فهذه القصور وما يدور فيها كانت سبباً مباشراً لكثرة الشعر الذي نظم في وصفها ووصف غيرها من مظاهر الطبيعة ووصف الخمر ومجالسها التي كانت تتخذ من هذه القصور مجلساً لها .

٤- كذلك من المظاهر الاجتماعية لهذا العصر كثرة الجواري الروميات الجميلات من أسرى الروم في المعارك الحربية والتي فاضت بهن قصور الحكام وكبار رجال الدولة والشعراء والكتاب ، وما نشأ عن ذلك من حب وهوى ، ملك قلوب الحكام

والشعراء على السواء مما كان له الأثر الكبير فى كثرة شعر الغزل بالجوارى فى الدولة الحمدانية ، ويتجلى ذلك فى شعر لسيف الدولة الحمدانى تغزل فيه بجارية مسيحية استحوذت على عقله وقلبه فيقول فيها [١]:

راقبتنى العيون فيك فأشفقت ... ولم أخل قط من إشفاق
ورأيت العزول يحسدنى فيك ... مجداً يا أنفس الأعلاق
فتمنيت أن تكونى بعيدة ... والذى بيننا من الودّ باق
ورب هجر يكون من خوف هجر ... وفراق يكون خوف فراق

٥- وبجانب هذه الحياة التى كان يحياها الحكام ومن جاورهم من حياة غنى وثراء وترف ولهو وقصور وخمرة وطرب .. كانت هناك حياة بؤس وشقاء ، وفقر وفاقة وحرمان وحاجة يعيش فيها عامة الشعب حيث واشتدت المجاعات وانتشر الغلاء فى الوقت الذى يسرف فيه الحكام إسرافا عظيما ويغدقون الأموال الطائلة على الشعراء المادحين حتى أصبحت عيشة هؤلاء الشعراء المادحين ترتفع إلى مستوى عال من الفخامة والبذخ فملكوا القصور والضياع والبساتين والأموال مما جعل عامة الشعب يشكون ويتوجعون ، بل لكثرة الظلم الذى أوقعه الحمدانيون على الرعية دفع بعضهم أن يثوروا على الدولة ويحاربوها بعد انضمامهم إلى الروم ونصرهم

([١]) يتيمة الدهر جـ ١ صـ ٢٠ - ٢١.

وهــو ما حدث مع بني حبيب النازلين بنصيبين وكانوا أبناء عمومة لسيف الدولة إلا أنه أوقع عليهم الظلم كثيراً مما دفعهم إلى أن يفعلوا فعلتهم ويتنصروا ويرتدوا عن الإسلام .

كذلــك قام الحكام الحمدانيون بظلمهم للرعية بكثرة الضرائب التي فرضوها عليهم ومصادرة أموالهم وضياعهم ..

ممــا جعــل الناس يشكون ويتوجعون ويظهر ذلك في شعر العصــر ، مــثلما راج شعر المدح تبعا للحالة التي كان يعيش فيها الشعراء من بذخ وترف من قبل الحكام الحمدانيين .

٦- كذلــك يتسـم هذا العهد بعدم الاستقرار في أمور الدولة وتعــرض البلاد للسقوط في يد الأعداء مرة تلو مرة ، وارتفاع شأن اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الذمة وطيب عيشتهم ومحافظتهم على دينهم ولغتهم الآرامية والسريانية ، وفتحت أمامهم سوق العمل فعملــوا فــي مختلف المجالات ، بل إن أهل الذمة قد تظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام من اليهود على حين كان أكثر الأطباء والكتبة من النصارى »[١].

وكــان لكــل ذلــك أثــر كبــير في الأدب والشعر في عهد الحمدانيين .

٧- كذلــك تمتعــت الدولــة الحمدانية بغنى وثراء عظيمين

---

(١) الحضارة الإسلامية جـ ١ صـ ٦٢.

وكانـت الدولـة غنـية بمختلف مصادر الدخل التى تنوعت بين : زراعـة وصـناعة وتجـارة ومعادن وصيد الأسماك ، فقد تعددت المـزروعات وتنوعـت مـن فواكـه مخـتلفة وحـبوب وأزهار وخضـروات، وقد ساعدها على ذلك وجود التربة الخصبة والأنهار الجارية المتعددة فى الدولة ، كما تعددت الصناعات وتنوعت وكانت من أهم مصادر الدخل فى دولة الحمدانيين حيث ازدهرت الصناعة الجـيدة على مختلف أنواعها ، وقد ساعد الموقع الجغرافى المتميز للدولة الحمدانية على التجارة الخارجية والداخلية الرابحة ، فقد كانت القوافـل التجارية تخرج من الدولة إلى مختلف المناطق والأقاليم : مثل العراق وفارس والصين والهند ومصر والحجاز واليمن وإفريقية وغيرها من الأقاليم المختلفة .

إذن استطاعت الدولة الحمدانية أن تحصل على دخل كبير من هذه المصادر فضلا عن مصدر الخراج الذى كان يجبى لبيت المال وفضلا عن الضرائب والمكوس .

فقـد كانت الدولة الحمدانية غنية وبلغت حداً كبيراً فى الغنى والـثراء وفاض ذلك على الأمراء والحكام والشعراء حتى أصبحوا غارقيـن فى النعيم حتى ان رأى بعض أصحاب الحرف ما يناله الشـعراء تـركوا حرفهم الأصلية واحترفوا الشعر لأنهم وجدوه الحـرفة الـرابحة فى مجتمعهم : مثل السرى الرفاء ، الذى ترك

حــرفة رفــو الملابس والواواء بترك سوق الفاكهة والنامى بترك الجــزارة واتجهــوا إلــى بــلاط الأمراء يمدحون فأفاءوا عليهم بالأموال والهبات الثمينة .

٨- كثرة الأديرة وانتشارها فى ربوع الدولة الحمدانية ، حيث كــان يقضى فيها الشعراء معظم أوقاتهم يتناولون الخمرة ويتبادلون الأشــعار وسط الخمائل والأشجار والرياحين فكثر شعر الغزل الذى قــيل فى الأديرة ويعد من أرق ما نظم من الشعر العربى ، واشهر الأديــرة : " دير الشياطين " و " دير زكى " بالرقة على شاطئ نهر البلخ الذى كان منزل الملوك وموضع إقامتهم فيه .

وإذا كانت الحياة الأدبية ما هى إلا صدى وأثراً للحياة العامة الــتى يعيشــها الناس خاصة الحياة السياسية والاجتماعية - بجانب الطبيعة البيئية - فمما لا شك فيه أن لهذه الحياة التى صورناها لكبير الأثر فى النتاج الأدبى عامة والشعر منه على وجه خاص .

فشــعر المــدح كان صدى لتشجيع الحكام والأمراء للشعراء والاغــداق علــيهم وشعر الحرب كان صدى طبيعا لكثرة الحروب والصــراعات التى عاشتها الدولة خارجياً وداخليا ، وشعر الطبيعة كان صدى لجمال الطبيعة وما تمتعت به هذه البلاد من سحر وجمال وفتــنة وروعــة فى مدنها وقصورها وأنهارها وطبيعتها الخضراء الناضرة التى شاعت وانتشرت فى أنحاء الدولة ، وشعر الغزل كان

صدى لانتشار الأديرة وكثرة الجوارى والغلمان وماساد الحياة حينئذ من لهو ومجون .

وشـــعر الخمـــر كان صدى لهذه الحياة العابثة الماجنة وكثرة مجالس الخمرة من القصور إلى الأديرة والحانات ومجالس اللهو فى رحاب الطبيعة .

وشـــعر الفخـــر كان صدى لهذه النزعة العنصرية والعصبية القبلية وإحساس جنس بالأفضلية على جنس آخر أو قبيلة أخرى .

وشـــعر الشكوى : كان صدى لما ساد الحياة من ظلم وفساد وفقر للطبقة العامة من الشعب أو ما نشأ عن الوقوع فى الأسر أثناء الحروب الكثيرة التى دارت بين الحمدانيين وأعدائهم .

***

الأدب والشعر فى عصر الحمدانيين :

عــنى الأمــراء الحمدانيون عناية فائقة بالأدب والشعر منه بوجــه خــاص واهتموا بذلك اهتماماً واضحاً وبالغوا فى اهتمامهم بالشــعر مــبالغة فائقــة حتى أصبحت إمارتهم بشعبيتها: فى حلب والموصل .

الإمــارة الأولى فى الشعر العربى فى القرن الرابع الهجرى وتربعــت إمــارتهم على ساحة القريض وتفوقت على كل الدويلات الأخــرى الــتى ظهرت فى العصر العباسى الثانى – عصر الدول والإمارات – منذ نشأت هذه الدويلات وحتى انتهائها على يد المغول سنة ٦٥٦ هـ .

فتفوقت إمارة الحمدانيين على الدولة البويهية والدولة الفاطمية والدولــة الأيوبية وماعداها من مختلف الدويلات التى قامت ونشأت بعد العصر العباسى الأول وحتى انتهاء العباسيين .

ووجد فى هذه الإماة عدد كبير من كبار الشعراء فى عصرهم هــؤلاء الشعراء الذين نبغوا فى عالم الشعر وتفوقوا فيه على معظم الشــعراء ، يــتقدمهم شــاعر العربية الأول : المتنبى وأبو فراس الحمدانــى وكشــاجم والسرى الرفاء والصنوبرى والوأواء الدمشقى والبــبغاء والــنامى والــزاهى وابــن نباتة السعدى والخليع الشامى ومنصــور وأحمد ابنا كيغلغ والناشئ الأصغر الصورى والواسانى والخباز البلدى والفياض والشمشاطى وأبو بكر وأبو عثمان الخالديان وغيرهم من الشعراء .

وقامـــت فـــى إمارة الحمدانيين نهضة شعرية كبرى حازت إعجاب وتقدير الباحثين والدارسين للأدب العربى والمتخصصين فى الأدب والنقد بالرغم من قصر الفترة الزمنية التى قضاها الحمدانيون فى دولتهم حيث لم تتجاوز هذه الفترة السبعين عاما وهى فترة تعد قصـــيرة بجانـــب هذا الازدهار والتطور والرقى والتقدم الذى حدث للشعر على أيدى الحمدانيين فى هذه الفترة .

حقـــيقة لقـــد ازدهر الأدب والشعر فى دولة البويهيين ودولة الفاطمييـــن والدولـــة الأيوبية إلا أن هذه الدول لم تصل إلى الدرجة الـــتى وصلت إليها الدولة الحمدانية فى عالم الشعر ودنيا القريض ، وتكـــاد هذه الإمارة تضارع العصر العباسى الأول وتماثله فى تقدم وازدهـــار الشـــعر العـــربى إن لم تكن تتفوق عليه وتسبقه فى هذا المضمار .

ولقـــد حظى الأدب العربى والشعر منه بوجه خاص بنصيب وافـــر مـــن الرقى والازدهار والتشجيع لم يحظ بمثله الأدب العربى والشعر خاصة فى أى مكان أو زمان وبخاصة فى عهد سيف الدولة الحمدانـــى فقد كان مقصد الوفود ومطلع الجود وقبلة الآمال ومحط الـــرحال وموسم الأدباء وحلبة الشعراء ويقال : إنه لم يجتمع بباب أحـــد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر [١] .

---

(١) يتيمة الدهر جـــ ١ صـــ ٩ .

فقـد كـان لتشجيع الأمراء الحمدانيين أثر كبير فى نهوض الشـعر وازدهـاره وكان لكرمهم الشديد فى العطاء – خاصة سيف الدولـة – الأثر الواضح فى تجمع عشرات الشعراء بل المئات منهم حولهم يمدحونهم وينالون جوائزهم وعطاياهم الثمينة .

وقـد اجتمع لسيف الدولة من الشعراء ما لم يجتمع لمثله من الأمـراء والملوك حيث كانت " حلب " محط أنظار الشعراء جميعا ومطمع آمالهم وظل ازدهار الشعر وكثرة شعرائه مرتبطين بوجود سـيف الدولـة حيث كان لسخائه فى العطاء للشعراء أثر كبير فى الـتفاف الشـعراء من حوله ، وقد بلغ سيف الدولة مبلغا عظيما فى العطـاء والجوائز الثمينة حتى ولو كانت هذه الجائزة ضيعة " وذلك مـثلما حـدث بالفعل أن كان أبو فراس جالسا بين يديه فى نفر من ندمائه فقال لهم سيف الدولة أيكم يجيز قولى وليس لـه إلا سيدى ؟ يعنى أبا فراس :

لك جسمى تعلـــه فدمـــى لم تحلـــه

فارتجل أبو فراس

أنا إن كنت مالكـا فلـــى الأمـــر كله

فاستحسنه وأعطاه ضيعة بمنبج تغل ألف دينار " [١] .

وروى الثعالبى أيضا فى اليتيمة عن أبى الحسن محمد قال : كنـت واقفـا فـى السماطين بين يدى سيف الدولة بحلب والشعراء

---

(١) يتيمة الدهر جـ١ صـ١٢ .

ينشـدونه فتقدم إليه أعرابى رث الهيئة فاستأذن الحجاب فى الإنشاد فأذنوا له فأنشد :

أنـت علـيّ وهـذه حلـب قـد نفـد الزاد وانتهى الطلب

بهـذه تفخـر الـبلاد وبالـ أمير تزهى على الورى العرب

وعبدك الدهر قد أضربنـا إليك من جور عبدك الهـرب

فقال سيف الدولة أحسنت ولله أنت وأمر له بمائتي دينار "

وقال الثعالبى : " وحكى ابن لبيب غلام أبى الفرج الببغاء أن سـيف الدولـة قد أمر بضرب دنانير للصلات ، فى كل دينار منها عشـرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته ، فأمر يوما لأبى الفرج منها بعشرة دنانير فقال ارتجالا :

نحن فى جود الأمير فى حرم نـرتع بيـن السـعود والنعمْ

أبـدع مـن هـذه الدنانير لم يجـر قديمـا فى خاطر الكرم

قد غدتْ باسمه وصورتـه فى دهرنا عوذة مـن العـدم

فزاده عشرة أخرى..

وفاضـت كتب تاريخ الأدب بالحديث عن سخاء سيف الدولة وعطائـه للشـعراء وإغداقه عليهم ، ولم يكتف سيف الدولة بالجود والكـرم على إمارته بل فاض كرمه وعطائه على الشعراء البعيدين عـن بلاطـه فكـان يرسل إليهم الجوائز الثمينة والصلات المجزية ويـتجلى ذلك فيما حدث لسيف الدولة مع أبى اسحاق الصابى حين

استمدحه سيف الدولة فأرسل إليه ثلاثة أبيات فبعث إليه سيف الدولة ثلثمائة دينار " [1].

وقد ساعد سيف الدولة على ذلك أنه كان عربيا أصيلا فى عروبته متعصبا لها متمسكا بالقيم والعادات العربية الأصيلة مشجعا على كل ما يرفع قدر العروبة ويعلى شأنها فحافظ على لغتها وفنونها خاصة فن الشعر الذى برز فيه العرب وتفوقوا فيه على غيرهم .

كما ساعده على ذلك الكرم والتشجيع أنه كان شاعرا ينظم الشعر الرقيق بل كان على علم ودراية واسعة بنقد الشعر نقداً يدل على شاعرية وعلم وذوق عربى مستقيم ، فمن شعره الجيد :

راقبتنى العيون فيك فأشفقـ ـت ولم أخل قط من إشفاق
ورأيت العدو يحسدنى فيـ ـك مجدا يـا أنفس الأعلاق
فتمنيت أن تكونى بعيدا والذى بيننا من الود باق
رب هجر يكون من خوف هجر وفراق يكون خوف فراق

ومن غزله الرقيق :

تجنى على الذنب والذنب ذنبه وعاتبنى ظلما وفى شقه العتب
وأعرض لما صار قلبى بكفه فهلاً جفانى حين كان لى القلب؟
إذا برم المولى بخدمة عبده تجنى له ذنبا وإن لم يكن ذنب

وهناك للأمير أشعار أخرى كثيرة ، حيث كان شاعرا رقيقا لا يخلو شعره من عاطفة ومشاعر جياشة ، ومن نظراته النقدية نقده

---

(1) يتيمة الدهر جـ١ صـ١٢ ..

للمتنبى حينما أنشد قصيدته بين يديه :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام الكرائم

فلما بلغ قوله فيها :

وقفت وما فى الموت شك لواقف كأنك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

قال : قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على امرئ القيس بيتاه :

كأنى لم أركب جوادا ولم أقل لخيلى كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروى للذة ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولك أن تقول :

وقفت وما فى الموت شك لواقف ووجهك وضاح وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك فى جفن الردى وهو نائم

فقال : أيد الله مولانا إن صح أن الذى استدرك على امرئ القيس هذا كان أعلم بالشعر منه فقد أخطأ امرؤ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزار معرفة الحائك لأن البزار لا يعرف إلا جملته والحائك يعرف جملته وتفاريقه لأنه هو الذى أخرجه من الغزلية إلى الثوبية ، وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة فى شراء الخمر للأضياف بالشجاعة فى منازلة الأعداء وأنا لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى وهو الموت ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح

المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا وعينه من أن تكون باكية قلت: ووجهــك وضاح وثغرك باسم " لأجمع بين الأضداد فى المعنى وإن لــم يتســع اللفظ لجميعها " فأعجب سيف الدولة بهذا الرأى ووصله بخمسين دينارا من دنانير الصلات وفيها خمسمائة دينار [1].

فكــان سيف الدولة يجالس الشعراء ويعقد لهم الندوات لسماع أشعارهم ونقدها ويبذل لهم الجوائز السنية .

كمــا كــان لســيف الدولة نظرته الصائبة فى معرفة أقدار الشــعراء ومراتــبهم وترتيب كل واحد منهم فى منزلته اللائقة به ، فكــان يقــدم المتنــبى علــى جميع الشعراء ولا يقدم عليه أحدا من الشــعراء ممــا يــدل على تذوقه للشعر وضروبه ومعرفة غثه من سمينه، وهكذا بذل سيف الدولة للشعراء المال الكثير وجالسهم ونقد أشــعارهم ومــيز مكانتهم لأنه كان عربيا جوادا أريحيا يهتز للمديح فــنهض الشــعر فى عهده نهضة مباركة وبلغ القمة فى أيامه وعلى يديه .

واشــتهر مــن أمراء الحمدانيين أكثر من واحد من الشعراء يــتقدمهم الأمير أبو فراس الحمدانى الشاعر والفارس العظيم ومنهم أبو زهير وأبو وائل وغيرهما كما اشتهر منصور واحمد ابنا كيغلغ مــن أمــراء الشام ، "فقد كانت الأسرة الحمدانية ذات أصالة أدبية

---

(١) يتيمة الدهر جـ١ صـ١٢ ، ١٣ .

تـرجع أصـولها إلـى قبيلة تغلب المشهورة ، وكان أكثر الأمراء الحمدانييـن ينظمون الشعر الجميل ، فقد كان سعيد والد أبى فراس الحمدانـى شـاعراً ، وأبـو زهير مهلهل بن نصر بن حمدان كان شـاعراً وصديقاً لأبى فراس ومنهم أبو العشائر ابن عم سيف الدولة فقـد كـان شاعراً رقيقا فى الغزل ووصف الحروب ، ومنهم : أبو وائـل تغلـب ابن داود ابن حمدان كان شاعراً وكان أبو المطاع ذو القرنيـن بن ناصر الدولة شاعراً وهو الذى أصبح عاملاً للفاطميين على دمشق مرات عديدة .

وهكـذا كـان تشجيع الأمراء الحمدانيين للشعر والشعراء ، وإغـداق الأمـوال الطائلـة عليهم ومنحهم الهبات والجوائز الثمينة ومعرفـتهم بصـنعة الشـعر وضروبه ونقده وفنه وثقافتهم العربية الأصـيلة والشاملة لكل علوم العربية من أهم أسباب ازدهار الشعر والأدب فـى عهد الحمدانيين وتفوقهم على كل من عداهم من أمراء الـدول والإمارات ، بجانب عوامل أخرى عديدة ساعدت على هذا الـتقدم والازدهار وهو ما قدمناه وأشرنا إليه سابقا عند الحديث عن الحالـة الطبـيعة والسياسية والإجتماعية للمجتمع الحمدانى وبجانب الخصومات الأدبية التى دارت بين الشعراء خاصة بين المتنبى وأبى فراس والتى أذكت الشعر وساعدت على تقدمه ورقيه .

وتـبعا لهذا التقدم والازدهار والتشجيع نشأت كثرة هائلة من

الشعراء حول الحمدانيين وإمارتهم سواء من عاشوا فيها أو كانوا من هــؤلاء الشعراء الوافدين الذين وفدوا على بلاط الحمدانيين خاصة بلاط سيف الدولة الحمدانى .

فقــد كــان الصنوبرى والخليع الشامى من حلب ، والسري الــرفاء والبــبغاء والخالدين والخباز البلدى من الموصل ، وكشاجم والــوأواء والواســانى وابــنى كيغلغ وابنى ورقاء والنامى والعجلى والبكتمرى من الشام .

فضــلا عن الكثير من الشعراء الوافدين وفضلا عن المتنبى وأبــى فــراس الحمدانى اللذان لازما سيف الدولة فى حله وترحاله وحــروبه وانتصاراته وسطرا كل ذلك فى أشعارهما خاصة المتنبى الــذى لازم سيف الدولة تسع سنين يسجل أعماله وبطولاته ويمدحه ويشيد بانتصاراته فى قصائد رائعة من المدح والتى تعد وبحق أشبه بــالملاحم الشعرية التى تسجل هذه الأعمال والبطولات التى قام بها سيف الدولة خارجيا وداخليا .

ولــم يقتصــر تشــجيع سيف الدولة للشعر والشعراء وعقد المجالس الأدبية والمطارحات الشعرية ونقد الشعر وتقويمه بل تعدى ذلــك إلــى تشجيع علماء اللغة العربية وأفذاذها الكبار وأظلهم بظله فوُجــد كثيرون منهم فى ظلال دولته خاصة فى إمارة حلب عاصمة ســيف الدولة وكان من أشهر هؤلاء فى عهد بنى حمدان : عبد الله

الحســـين بن خالويه وأبو الفتح بن جنى وأبو بكر الخوارزمى وأبو علـــى الفارسى وأبو الطيب اللغوى وعلى بن عبد العزيز الجرجانى وكـــان أقرب هؤلاء جميعا إلى قلب سيف الدولة عبد الله الحسين بن خالويه ، ومن الموصل : أبو الفتح بن جنى صديق المتنبى الحميم.

ومن الكتب الضخمة التى ألفت لسيف الدولة الحمدانى : كتاب الأغـــانى لأبـــى الفرج الأصبهانى وهو أضخم كتاب ألف فى القرن الـــرابع الهجرى وقد أهدى أبو الفرج كتابه إلى سيف الدولة فأعطاه ألف دينار .

ومن قبيل اهتمام سيف الدولة بالعلوم العربية واطلاعه عليها: أنـــه ســـأل جماعـــة من العلماء فى مجلسه عن اسم ممدود وجمعه مقصـــور فقالوا : لا نعرف ، فقال لابن خالويه وكان حاضرا وقتئذ مـــاتقول أنـــت ؟ قال : أنا أعرف اسمين لا أقولهما إلا بألف درهم وهما: صحراء وصحارى وعذراء وعذارى[١] .

كذلـــك عنى الأمراء الحمدانيون بإنشاء دور الكتب وتزويدها بآلاف المصادر فى كل فنون العلوم ومن ذلك دار الكتب التى أنشأها جعفـــر بـــن محمد بن حمدان فى الموصل وجعلها عامة لكل طلاب العلم .

---

(١) صـــ ٢٣٢ بغية الوعاة للسيوطى .

الأغراض الشعرية : -

ونتيجة لهذه النهضة الشعرية فى إمارة الحمدانيين نتج كم هائل من الشعر العربى فى مختلف الأغراض الشعرية من : مدح وهجاء وفخر ورثاء وغزل وخمر وطبيعة ووصف وشكوى وعتاب وحكمة وزهد فضلا عن شعر الحرب والشعر الإخوانى والشعر الفلسفى وغير ذلك من فنون الشعر .

. **وكان شعر المدح** : هو أوسع أغراض الشعر فى عهد الحمدانيين وأكثرها شيوعاً وانتشارا – كما هو شأنه فى مختلف العصور الأدبية – وجاء نتيجة طبيعية للتشجيع الذى لاقاه الشعراء من الأمراء وإغداق الأموال الطائلة عليهم ومنزلة الشاعر الكبيرة وعظيم قدره وما كان يعيش فيه بسبب مدائحه من ترف وبذخ وثراء ولقد أشرنا سابقا إلى بعض الشعراء الذين تركوا حرفتهم الأصلية ليحترفوا الشعر واتخاذه صناعة يعيشون بسببها حيث كان البضاعة الرائجة التى تحقق لصاحبها قدراً عاليا وعيشة ثرية .

وقد راح الشعراء يمدحون الأمراء والحكام بشعر كثير وحاز سيف الدولة الحمدانى على النصيب الأكبر والجزء الأوفى من هذا الشعر وقد جمع الشمشاطى والفياضى عشرة آلاف بيت فى مدح سيف الدولة بمفرده فضلا عن الشعر الذى قيل فى مدح الأمراء الحمدانيين من أولهم حتى آخر أمير منهم .

كما لم نجد شاعراً من الشعراء مدح أميراً أو ملكاً كما مدح

المتنبى سيف الدولة حيث أوقف عليه مدائحه طوال تسع سنين قضاها عنده ولم يمدح فيها أحداً غيره وراح يسطر فيها أعمال وبطولات سيف الدولة الحمدانى وانتصاراته ووصف معاركه التى قضاها مع الروم والخارجين عليه .

وقد نهج الشعراء الحمدانيون نهج القصيدة العربية فى مدائحهم من المقدمات الطللية والغزلية وكان هذا نهجاً تقليدياً سار عليه شعراء المديح فى معظم قصائدهم ، والقصائد التى لا تستفتح بالغزل تسمى بالقصائد البتراء مثلها مثل الخطبة البتراء التى لا تستفتح " بالحمد لله "[١] .

ومن ذلك قصيدة المتنبى فى مدح سيف الدولة والتى بدأها بقوله :

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا	فإنك كنت الشرق للشمس والغربا
وكيف عرفنا رسم من لم تدع له	فؤاداً لعرفان الرسوم ولا لبا
نزلنا عن الأكوار نمشى كرامةً	لمن بان عنه أن نلم به ركبا
نذم السحاب الغر فى فعلها به	ونعرض عنها كلما طلعت عتبا
ومن صحب الدنيا طويلا تقلبت	على عينه حتى يرى صدقها كذبا
وفتانة العينين قتالة الهوى	إذا نفحت شيخا روائحا شبا
لها بشر الدر الذى قلدت به	ولم أر بدراً قبلها قلد الشهبا
فيا شوق ما أبقى ويالى من النوى	ويادمع ما أجرى ويا قلب ما أصبا

(١) العمدة لابن رشيق جـ ١ صـ ١٥٥.

إلى أن يقول مادحا سيف الدولة:

فــرب غلام علــم المجد نفسه كتعليم سيف الدولة الطعن والضربا
إذا الدولـــة اســتكفت به فى ملمة كفاهـــا فكان السيف والكف والقلبا
تهــاب ســيوف الهند وهى حدائد فكـــيف إذا كانــت نزارية عربا
ويرهــب ناب الليث والليث وحده فكـــيف إذا كان الليوث له صحبا
ويخشـــى عباب البحر وهو مكانه فكـــيف بمن يغشى البلاد إذا عبا
علـــيم بأســـرار الديانات واللغى لــــه خطرات تفضح الناس والكتبا
فبوركت من غيث كأن جلود نابه تنبت الديباج والوشـــى والعصبا

ويمضـــى فى مدح سيف الدولة واصفا إياه بالشجاعة والكرم والجود والعلم ويشبهه بالأسد والسيف والبحر والغيث وغير ذلك من الصفات والتشبيهات والمعانى التى عرفها الشعراء السابقون إلى أن يتعرض لوصف المعركة التى دارت بين سيف الدولة والدمستق قائد الـــروم وبـــناء قلعة مرعش وانتصار سيف الدولة وفرار قائد الروم مهزوماً بعد معركة طاحنة أفنت جنوده وعتاده .

وراح الشـــعراء يركـــزون فى مدائحهم على مدح الممدوح بالشجاعة والكرم والعدل والعقل والعفة وهى أركان المديح الأربعة التى جعلها البلاغيون أركان المدح .

وأحيانا ينظم الشاعر قصيدة المدح دون مقدمة تمهيدية وإنما يدخل فى قصيدته مادحا دون تمهيد أو تقديم .

وللنامى قصائد أخرى فى مدح سيف الدولة لا يبدؤها بالنسيب

أو الغـــزل وإنما أحيانا يبدؤها بالوصف والشيب وأحيانا أخرى ينظم القصيدة فى المدح دون مقدمات شأنه فى ذلك شأن المتنبى .

كذلك مدح السرى الرفاء سيف الدولة الحمدانى فأجاد وأبدع فى المقدمة الغزلية التى استفتح بها قصيدة المدح حيث كان صاحب مذهـــب رقيق فى الغزل وذوق خاص فى اختيار الألفاظ الموسيقية والكلمات المنغمة وأحيانا يهجم فى القصيدة على المدح مباشرة دون سابق تمهيد :

كقوله فى مدح سيف الدولة(١) :

أغـــرتك الشـــهاب أم الـــنهار ... أراحـــتك الســـحاب أم الـــبحار
خلقــت منــية ومــنى فأضحت ... تمــور بــك البســيطة أو تمار
تحلــى الديــن أو تحمــى حماه ... فأنــت علــيه ســور أو سوار
ســيوفك مــن شــكاة الثغر برء ... ولكــن للعــدا فــيها بــوار
وكفـــاك الغمـــام الجـــون يسري ... وفـــى أحشـــائه مـــاء ونـــار
يســـار مـــن ســـجيتها المـــنايا ... ويمـــنى مـــن عطيـــتها يســـار
حضـــرنا والملـــوك لـــــه قـــيام ... تغـــض نواظـــراً فـــيها انكســـار
وزرنـــا مـــنه ليـــث الغاب طلقا ... ولـــم نـــر قـــبله ليـــثا يـــزار
فكان لجوهـــــر المجـــــد انتظام ... وكان لجوهـــــر المـــــدح انتثار

ومـــن شـــعراء المديح الذين عاشوا فى بلاط سيف الدولة : الـــوأواء الدمشقى والذى كان له مذهب خاص فى شعر المدح حيث

---

(١) ديوان السرى الرفاء صـــ ١٠٥ - ١٠٦.

كـــان يطغـــى الغزل على المدح فى القصيدة فتأتى القصيدة كلها فى الغزل ثم يختمها ببيتين أو ثلاثة فى مدح الممدوح [١].

وكان أبو الفرج الببغاء من مداح سيف الدولة وسار على نهج الســـابقين عـــنه فى مدائحه ، والصنوبرى وابن نباتة السعدى وأبو الحســـن الناشىء الأصغر والزاهى والسلامى وغيرهم من الشعراء الذين مدحوا سيف الدولة .

وهكـــذا حظـــى سيف الدولة الحمدانى بالنصيب الأوفى من قصائد المدح فى عهد الحمدانيين ، بل مدح الشعراء جميع آل حمدان خاصـــة ناصـــر الدولة الذى كان يتردد عليه الشعراء فى الموصل يمدحونه ويأخذون جوائزه : كالسرى الرفاء وغيره .

وهكـــذا أخـــذ المدح حيزاً كبيراً من بين فنون الشعر العربى الأخرى ، ونوع الشعراء فى نهج قصائده :من بدئها بمقدمة طللية أو غزلـــية أو ذكـــر الشيب أو الوصف أو الفخر أو الحكمة أو غيرها وأحيانا لا يجعلون للقصيدة مقدمة تمهيدية وإنما تأتى القصيدة مستقلة بـــالمدح دون أن تشركها مقدمة تمهيدية وهذا النهج هو الذى انتهجه المتنـــبى واتخـــذه الشـــعراء إماماً لهم يهتدون بهديه ويسيرون على نهجه.

وهكـــذا راج فن المديح رواجاً منقطع النظير فى ظلال بنى حمـــدان وصادف نجاحاً هائلا من حيث الكم والكيف ، وظهرت فيه

---

(١) ينظر ديوانه صـــ ٣ ، ٤ ، ٥.

مدرســتان : مدرســة القوة والجزالة ويتزعمها المتنبى ، ومدرسة الســهولة والرقة ويتزعمها : السرى الرفاء والوأواء الدمشقى ، وقد اتحــدت المدرســتان فــى توليد الصور وتجسيم المعانى وتوليدها واختراعها والدقة فيها وتختلفان فى استخدام الألفاظ .

فالمدرســة الأولــى كانــت تكثر من استخدام الألفاظ البدوية وصــورها وطللها ورسومها والوقوف طويلا أمام الأطلال والتغزل بالأعرابيات ويتضح هذا فى شعر المتنبى ومدرسته .

والمدرســة الثانــية: كانت تستخدم صور الغزل الحضرى كثيراً وتستخدم الأسلوب المتحضر والمتخفف عن أسلوب البداوة .

إذن نظــم فــن المديح على طريقتين ومذهبين يتغايران فى الأسلوب والطريقة ويتفقان فى الجوهر والهدف وكلا المذهبين متأثر بمذهب المديح عند أبى نواس .

وعلــى الجملة فقد كان فن المديح فناً تقليديا اتبع نهج القدماء مــع انــنا لا نعدم فيه تجديداً أو تخفيفامن القيود القديمة خاصة فى المقدمــة الــتى لم يلتزم بها أو بكل خطواتها شعراء المديح إلا أن الطابع التقليدى القديم كان هو الطابع المسيطر على شعر المديح فى الدولة الحمدانية .

ومــن الأغــراض الشــعرية التى برزت على ساحة الشعر الحمدانــى : شــعر الفخر : وقد كثر فى هذا العصر نتيجة للعصبية القبلية والخصومات السياسية التى انتشرت فى دولة الحمدانيين حيث

بلــغ شــعر الفخر مبلغاً كبيرا وارتفع إلى الذروة الفنية مع اقتصاره وانحصاره فى أبو فراس الحمدانى وأبو الطيب المتنبى .

وطبــيعة العــربى حب الفخر والتفاخر بالأنساب والأحساب والقيم الأصيلة وبالشجاعة والفروسية والبطولة فى ساحات المعارك والحــروب ؛ والدولــة الحمدانية دولة عربية أصيلة شأنها شأن كل العــرب الــذى طــبعوا علــى حب الفخر ، ويضاف إلى ذلك هذه الحروب الكثيرة والانتصارات العظيمة التى حققتها الدولة الحمدانية على أعدائهم البيزنطيين وكان أبو فراس الحمدانى من القواد الكبار والفوارس العظام الذى كثيراً ما حقق الانتصارات على جيوش الروم وظل يحاربهم إلى أن وقع فى الأسر لديهم .

فمــن الطبيعى إذن أن يشدو أبو فراس الحمدانى بشعر الفخر مفــتخرا بشــجاعته وفروســيته بجانب فخره بحبسه ونسبه وأصله وأخلاقه وبأسرته وبمكانته الشعرية حيث كان يعد نفسه نداً للمتنبى .

ومــن الطبيعى أيضاً أن يرتفع صوت المتنبى بشعر الفخر وهو الشاعر الكبير الذى تبوأ عرش الشعر فى عصره وكان أمير الشعر فى دولته وفى عصره الذى عاش فيه على اختلاف دويلاته وتعددها .

فكــان يحــس بمكانــته وعظمته الشاعرية هذه العظمة التى فرضته على التاريخ الأدبى وجعلت شعره خالداً خلود الدهر .

فأبو فراس الحمدانى كان شاعرا كبيرا وفارسا مغوارا وأميرا من أمراء الدولة الحمدانية .

والمتنبي كان عبقرية فذة في عالم الشعر ونابغة فريدة في عصره وزمانه فمن الطبيعي والحال كذلك أن يحس كل من الشاعرين بمكانته ومنزلته ويروح مفتخرا بنفسه .

وجاءت قصائد الفخر عند أبي نواس متنوعة النهج والطريقة فأحيانا يبدأ قصيدة الفخر بمقدمة غزلية رقيقة وأحيانا أخرى مقدمة غزلية بدوية كأنه شاعر جاهلي وأحيانا يستهلها بذكر الشيب وغير ذلك ، وقد افتخر أبو نواس على العرب بحسبه ونسبه وعلى الروم ببطولاته وانتصاراته عليهم حتى وهو أسير في حبسهم .

ومن أروع قصائده في ذلك قصيدته الرائعة التي بدأها بقوله:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر ... أما للهوى نهي عليك ولا أمر
نعم أنا مشتاق وعندي لوعة ... ولكن مثلي لا يذاع له سر
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى ... وأذللت دمعا من خلائقه الكبر
تكاد تضيئ النار بين جوانحي ... إذا هي أذكتها الصبابة والفكر
معللتي بالوصل والموت دونه ... إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر
حفظت وضيعت المودة بيننا ... وأحسن من بعض الوفاء لك العذر
بنفسي من الغادين في الحي غادة ... هواي لها ذنب وبهجتها عذر
تروغ إلى الواشين في وإن لي ... لأذنا بها عن كل واشية وقر
بدوت وأهلي حاضرون لأنني ... أرى أن دارا لست من أهلها قفر
وحاربت قومي في هواك وإنهم ... وإياك لولا حبك الماء والخمر
فإن كان ما قال الوشاة ولم يكن ... فقد يهدم الإيمان ما شيد الكفر

تسائلني من أنت وهي عليمة ... وهل بفتى مثلي على حاله نكر؟
فقلت كما شاءت وشاء لها الهوى ... قتيلك قالت أيهم فهم كثر
فقالت لقد أزرى بك الدهر بعدنا ... فقلت : معاذ الله بل أنت لا الدهر
وما كان للإخوان لولاك مسلك ... إلى القلب لكن الهوى للبلى جسرُ
فأيقنت أن لا عز بعدي لعاشق ... وإن يدي مما علقت به صفر
وقلبت أمري لا أرى لي راحة ... إذا الهم أسلاني ألح بي الهجر
فعدت إلى حكم الزمان وحكمها ... لها الذنب لا تجزى به ولي العذر
فلا تنكريني يا ابنة العم إنه ... ليعرف من أنكرته البدو والحضر
ولا تنكريني إنني غير منكر ... إذا زلت الأقدام واستنزل النصر
وإني لجرار لكل كتيبة ... معودة أن لا يخل بها النصر
وإني لنزال بكل مخوفة ... كثير إلى نزالها النظر الشزر
فأظمأ حتى ترتوي البيض والقنا ... وأسغب حتى يشبع الذئب والنسر
ولا أصبح الحي الخلوف بغارة ... ولا الجيش ما لم تأته قبلي النذر
ويارب دار لم تخفني منيعة ... طلعت عليها بالردى أنا والفجر
وحي رددت الخيل حتى ملكته ... هزيما وردتني البراقع والخمر
وساحبة الأذيال نحوي لقيتها ... فلم يلقها جهم اللقاء ولا وعر
وهبت لها ما حازه الجيش كله ... ورحت ولم يكشف لأثوابها ستر
ولا راح يطغيني بأثوابه الغنى ... ولا بات يثنيني عن الكرم الفقر
وما حاجتي بالمال أبغي وفوره ... إذا لم أفر عرضي فلا وفر الوفر
أسرت وما صحبي بعزل لدى الوغى ... ولا فرسي مهر ولا ربه غمر
ولكن إذا حم القضاء على امرئ ... فليس له بر يقيه ولا بحر

وقال أصيحابى الفرار أو الردى ... فقلت : هما أمران أحلاهما مر

ولكننى امضى ما لا يعيبنى ... وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

يقولون لى : بعت السلامة بالردى ... فقلت : أما والله ما نالنى خسر

وهل يتجافى عنى الموت ساعة ... إذا ما تجافى عنى الأسر والضر

هو الموت فاختر ما علا لك ذكره ... فلم يمت الإنسان ما حيى الذكر

يمنون أن خلوا ثيابى وإنما ... على ثياب من دمائهم حمر

وقائم سيفى فيهم اندق نصله ... وأعقاب رمحى فيهمُ حطم الصدر

سيذكرنى قومى إذا جد جدهم ... وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

فإن عشت فالطعن الذى يعرفونه ... وتلك القنا والبيض والضمر الشقر

ونحن أناس لا توسط بيننا ... لنا الصدر دون العالمين أو القبر

تهون علينا فى المعالى نفوسنا ... ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر

أعز بنى الدنيا وأعلى ذوى العلا ... وأكرم من فوق التراب ولا فخر

وهناك أشعار كثيرة فى شعر الفخر لأبى فراس الحمدانى حيث يغلب الفخر على شعره ويكثر فيه كثرة هائلة وحيث يعد شعر الفخر هو النغمة الأصلية التى بزت فيها فنيته وعظمته الشعرية مثلما ظهرت عبقرية المتنبى وفنيته ونغمته الأصلية فى شعر المدح ووصف المعارك والحروب فسيفيات المتنبى وروميات أبى فراس تعد أروع شعر الشاعرين بل أروع شعر فى عصرهما .

وكما ان المتنبى يتفوق على أبى فراس فى شعر المدح وتصوير الحروب والبطولات فكذلك أبو فراس يتفوق على المتنبى

فى شعر الفخر حيث وجد أبو فراس المنبع الأصيل للفخر فى نسبه وحسبه وفى فروسيته بجانب شاعريته بخلاف المتنبى الذى لم يجد مصدراً لفخره إلا شاعريته ومكانته الشعرية .

ومن شعره فى الفخر قوله :

أنا ترب الندى ورب القوافى . وسمام العدا وغيظ الحسود
أنا فى أمة تداركها الله غريب كصالح فى ثمود
ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام المسيح بين اليهود

ومن فخره قوله :

إذا غامرت فى شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر صغير كطعم الموت فى أمر عظيم

وقوله يفتخر بشعره أمام سيف الدولة :

إن هذا الشعر فى الشعر ملك صار فيه فهو الشمس والدنيا فلكْ
عدل الرحمن فيه بيننا فقضى باللفظ لى والحمد لك
فإذا مر بأذنى حاسد صار ممن كان حيا فهلك

فشعر الفخر يعد أحد الفنون الشعرية التى ازدهرت فى عهد الحمدانيين وكان أبو فراس الحمدانى والمتنبى هما شاعراه الكبيران إلا أن أبا فراس كان الفارس الأول لشعر الفخر فى عصره وتفوق على المتنبى فيه كما وكيفا وأصالة وذلك لأن كل ما نظمه أبو فراس من فخر كان تعبيرا عن حقائق عاشها الشاعر وتمثيلا لواقع حالته

أما المتنبى فقد افتخر بأمور تخيلها وجاء شعر الفخر غالبا عنده فى ثـــنايا قصـــائد أخرى قيلت فى أغراض غير الفخر ، كما وجد غير هذيـــن الشاعرين من نظم فى شعر الفخر فى عهد الحمدانيين إلا أن ذلـــك كـــان قليلا وخلال قصائد شعرية ضمن أغراض أخرى كانت الغرض الأصلى للقصيدة.

* * *

ومن الأغراض الشعرية الرثاء:

والرثاء من الأغراض القديمة فى الشعر العربى منذ العصر الجاهلى ، وينقسم إلى ألوان ثلاثة : ندب وتأبين وتعزية .

والـــندب : هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التى تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة إذ يولول النائحون والباكون ويصيحون ويعولون مسرفين فى النحيب والنشيج وسكب الدموع [١].

والندب أقوى ألوان الرثاء تعبيرا عن الحزن والألم ولا يكون غالــبا إلا فى فقد عزيز يتحول الشاعر بعد فقده إلى مصاب بضربة قاسية .

والتأبيـــن : هـــو أقـــرب إلى المدح منه إلى الحزن والبكاء والـــنواح حيث يروح المؤبن فى تعداد فضائل الميت وسجاياه التى كان يتمتع بها فى حياته قبل الموت، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته فى هذا الفرد المهم من أفرادها [٢].

والتعزية : التعبير عن الحزن لفقد ميت حيث ينفذ الشاعر من حادثة الموت إلى التفكير فى حقيقة الموت والفناء .

وقـــد ازدهر شعر الرثاء ازدهارا كبيرا فى عصر الحمدانيين

---

(١) الرثاء للدكتور شوقى ضيف صـــ ١٢ .

(٢) فن الرثاء د / شوقى ضيف صـــ ٦ .

ووجدنـــا الـــرثاء بألوانه الثلاثة : ندب وعزاء وتأبين ، وباتجاهاته المــتعددة : مــن رثــاء ســياسى ورثاء اجتماعى ورثاء الحيوانات والطيور والمدن .

فالــرثاء السياســى : هو الرثاء الذى يتعلق برجال السياسة والحكم من الملوك والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة وتعزيتهم فى أقاربهم .

والــرثاء الاجتماعى : هو هذا اللون من الرثاء الذى تحكمه العلاقات الاجتماعية بعيدا عن شئون السياسة والجهة الرسمية للدولة كــرثاء الأهــل والأصدقاء ولقد كثرت المراثى المختلفة باتجاهيها: السياســى والاجــتماعى فــى الشــعر الحمدانــى وترصد الشعراء المناســبات المخــتلفة لتعزية أو تأبين أو ندب فى كل ملمة تنزل أو مصيبة تحل .

ومن شعر الرثاء فى المجتمع الحمدانى : قصيدة المتنبى التى راح يرثى فيها أم سيف الدولة وقد توفيت يميا فارقين وجاءه الخبر بموتها إلى حلب سنة ٣٣٧هـ والتى يقول فيها :

نعـــد المشـــرفية والعوالـــى وتقتلـــنا المـــنون بـــلا قـــتال
ونرتـــبط الســـوابق مقـــربات ومـــا ينجيـــنا من خبب الليالى
ومـــن لـــم يعشـــق الدنيا قديما ولكـــن لا ســـبيل إلـــى الوصال
نصـــيبك فى حياتك من حبيب نصـــيبك فـــى منامك من خيال
أمـــانى الدهـــر بالأرزاء حتى فـــؤادى فـــى غشـــاء مـــن نبال

فصــــرت إذا أصــــابتني ســــهام ... تكســـرت النصـــال على النصال
وهـــان فمـــا أبـــالي بالـــرزايا ... لأنـــي مـــا انتفعـــت بـــأن أبالي
وهـــذا أول الناعيـــن طـــرا ... لأول ميـــتة فـــي ذا الجـــلال
كـــأن المـــوت لـــم يفجع بنفس ... ولـــم يخطـــر لمخلـــوق بـــبال
صـــــلاة الله خالقـــــنا حنوط(١) ... علـــى الوجـــه المكفـــن بالجمال
على المدفون قبل الترب صونا ... وقـــبل اللحـــد فـــي كرم الخلال
فـــإن له ببطن الأرض شخصا ... جديـــداً ذِكْـــرُنَاهُ وهْـــوَ بـــال
وما أحد يخلد فـــي البرايـــا ... بل الدنيـــا تئول إلـــى زوال

حيـــث نـــرى الشـــاعر يبدأ مرثيته بالحديث عن الموت وأنه يخطـــف الجميع حتى بلا قتال ، وأن الدنيا غدارة لا تؤمن ، ثم يعبر عن حزنه وألمه على أم سيف الدولة بأن الدهر رماه بالمصائب في موتها واعتمد فؤاده بسهامه وأثبت فيه نضاله .

ثم راح يعزى الأمير في وفاة أمه بعد تعظيم ميتها لجلالها ، ويصـــبره على فقدها ، فالخلود مستحيل وكل مخلوق إلى زوال ، ثم يعـــزى الأمـــير ويصـــبره على مصيبته وأن أمه ماتت ميتة كريمة تمنتها النساء سابقات ولاحقات حيث رأت مجد ابنها وعزه وبعد أن عاشت حياة كريمة ثم راح يدعو لقبرها بالسقيا ثم راح يعدد صفاتها ويذكـــر خلالها الطيبة من الحصافة والصدق وأنها أفضل حتى من الرجال وأنها تشبه الشمس بينما الرجال يشبهون الهلال :

---

(١) الحنوط : طيب يستخدم في غسل الميت .

ولـــو كـــان النســـاء كمن فقدنا　لفضـــلت النســـاء علـــى الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب　ولا التذكير فخـــر للهـــلال

ثم راح يمزج بين الرثاء والحكمة فيقول :

يدفـــــن بعضـــــنا بعضـــــا　وتمشى أواخرنا على هام الأوالى[1]
وكم عين مقبلـــــة النواحـــــى　كحيل بالجنــــادل والرمـــال

وهذا المعنى تأثر به أبو العلاء المعرى فى قوله :

صاح هذى قبورنا تملأ الرحـــ　ـــب فأين القبور من عهد عاد
خفف الوطأ فما أظـــن أديم الـــ　أرض إلا مـــن هذه الأجســـاد

ثم يروح الشاعر يمدح سيف الدولة ويجمع بين المدح والرثاء بعـــد أن يصـــبره ويعزيه وأنه المتماسك كالجبال الراسيات وأنه هو الذى يعلم الناس الصبر فيقول :

أسـيف الدولـة استنجد بصبر　وكـيف بمـثل صـبرك للجبال
فأنـت تعلـم الـناس الـتعزى　وخوض الموت فى الحرب السجال
وحـالات الـزمان عليك شتى　وحـالك واحـد فـى كـل حـال
فـلا غيضت بحارك يا جموما　علـى علـل الغرائب والدخال[2]
رأيـتك فـى الذين أرى ملوكا　كـأنك مسـتقيم فـى محـال[3]
فإن تفق الأنام وأنت منهـم　فإن المسـك بعض دم الغـزال

---

(١) يريد الأوائل : أى ندفن الأموات ونمشى على رؤوسهم ويطأ الآخر قبر الأول .
(٢) الجموم : الكثير .
(٣) المحال : المعوج .

ومن الرثاء السياسي كذلك رثاء المتنبي " لخولة " أخت سيف الدولة في قصيدة بلغت أربعة وأربعين بيتاً منها :

يا أخت خير أخٍ يا بنت خير أب ... كناية بهما عن أشرف النسب
أجل قدرك أن تسمى مؤبنة ... ومن يصفك فقد سماك للعرب
لا يملك الطرب المحزون منطقه ... ودمعه وهما في قبضة الطرب
غدرت يا موت كم أفنيت من عدد ... بمن أصبت وكم أسكت من لجب

إلى أن ينتقل الشاعر فيصور حزنه وفجيعته على الفقيدة التي طبق نعيها الآفاق :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر ... فزعت فيه بآمالي إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا ... شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي
تعثرت به في الأفواه ألسنها ... والبرد في الطرق والأقلام في الكتب (١)
كأن فعلة لم تملأ مواكبها ... ديار بكر ولم تخلع ولم تهب
ولم ترد حياة بعد تولية ... ولم تغث داعيا بالويل والحرب
أرى العراق طويل الليل مذ نعيت ... فكيف ليل فتى الفتيان في حلب
يظن أن فؤادي غير ملتهب ... وأن دمع جفوني غير منسكب
بلى وحرمة من كانت مراعية ... لحرمة المجد والإسلام والأدب
ومن مضت غير موروث خلائقها ... وإن مضت يدها موروثة النشب(٢)
وهمها في العلا والملك ناشئة ... وهم أترابها في اللهو واللعب

---

(١) البرد : أعلام تنصب في الطريق .
(٢) النشب : المال جميعه .

يعلمن حين تحيى حسن مبسمها   وليس يعلم إلا الله بالشنب [١]

ثم راح الشاعر ينتقل من الرثاء إلى مدح سيف الدولة ثم ختم القصيدة بأبيات من الحكمة .

ومن الرثاء السياسي أيضا رثاء المتنبي لطفل سيف الدولة حيث مات صغيرا [٢] . ورثاء أبي فراس الحمداني لهذا الطفل وهو أسير لدى الروم ومن أبيات القصيدة [٣]:

هل تبلغ القمر المدفون رائعة   من المقال عليها للأسى حلل
ما بعد فقدك في أهل ولا ولد   ولا حياة ولا دنيا لنا أمل
يا من أتته المنايا غير حافلة   أين العبيد وأين الخيل والخول
أين الليوث التي حوليك رابضة   أين الصنائع؟أين الأهل؟ما فعلوا؟
أين السيوف التي تحميك أقطعها   أين السوابق أين البيض والأسل
يا ويح خالك بل يا ويح كل فتى   أكل هذا تخطى نحوك الأجل ؟

فأبو فراس حزين باك على الطفل الصغير ، حيث يعبر عن مشاعره بكل الصدق والمشاعر الجياشة كيف لا يكون ذلك والطفل الفقيد ابن أخته ؟

وراح المتنبي يعزى سيف الدولة في عبده " يماك " التركي وقد مات بحلب [٤] وراح يعزى سيف الدولة في ابن عمه تغلب أبي

---

(١) الشنب : حدة في الأسنان .

(٢) ينظر ديوان المتنبي جـ٣ صـ ٤٣ – ٥٢ .

(٣) ديوان أبي فراس الحمداني.

(٤) ديوانه جـ ١ صـ ٤٩.

مـــات بحلـــب (١) وراح يعزى سيف الدولة فى ابن عمه تغلب أبى وائـــل(٢) ورثى أبا شجاع فاتكا (٣) ورثا أبا الهيجاء عبد الله بن سيف الدولة (٤) وعزى سيف الدولة في أخته الصغرى (٥) كما عزى الببغاء سيف الدولةفى طفله الذى مات صغيرا (٦).

هـــذا وهـــناك فيض كثير من شعر الرثاء السياسى الذى ظهر على ساحة الشعر فى عهد بنى حمدان .

ومـــن الـــرثاء الاجتماعى قصيدة المتنبى فى رثاء جدته لأمه وكانـــت جدتـــه قـــد يئست منه لطول غيبته فكتب إليها كتابا ، فلما وصـــلها قبلـــته وفرحـــت بـــه وحمت من وقتها لما غلب عليها من الســـرور فماتت ، فقال يرثيها بقصيدة بلغت أربعة وثلاثين بيتا منها قوله (٧):

ألا لا أُرى الأحداث حمدا ولا ذما   فمـــا بطشـــها جهلاً ولا كفها حلما
إلى مثل ما كان الفتى مرجع الفتى   يعـــود كما أبدى ويكرى كما أرمى(٨)

---

(١) ديوانه جـــ ١ صـــ ٤٩.
(٢) ديوانه جـــ ١ صـــ ٢٦١.
(٣) ديوانه جـــ٢ صـــ ٢٦٨ .
(٤) ديوانه جـــ٣ صـــ ٤٣ .
(٥) ديوانه جـــ٣ صـــ ١٢٣ .
(٦) نشوار المحاضرة صـــ ١٣٦.
(٧) ديون المتنبى جـــ ٤ صـــ ١٠٢ ومابعدها .
(٨) يكرى : ينقص .

لك الله من مفجوعة بحبيبها ... قتيلة شوق غير ملحقها وصما(١)
أحن إلى الكأس التي شربت بها ... وأهوى لمثواها التراب وماضما
بكيت عليها خيفة فى حياتها ... وذاق كلانا ثقل صاحبه قدما
ولو قتل الهجر المحبين كلهم ... مضى بلد باق أجدت له صرما(٢)
منافعها ماضر فى نفع غيرها ... تغذى وتروى أن تجوع وأن نظما
حرام على قلبى السرور فإننى ... أعد الذى ماتت به بعدها سما
طلبت لها حظا ففاتت وفاتنى ... وقد رضيت بى لو رضيت لها قسما
فأصبحت أستسقى الغمام لقبرها ... وقد كنت أستسقى الوغى والقنا الصما

ورثى أبو فراس أمه وقد ماتت وهو أسير لدى الروم حزناً وحسرة عليه فراح يبكيها من أعماق قلبه بمشاعر جياشة وعاطفة كلها حزن ، وكيف لا يكون ذلك وقد فقد أمه وهو بعيد عنها وأسير لدى الأعداء ، فيقول فى رثائها :

أيا أم الأسير سقاك غيث ... بكره منك ما لقى الأسير
أيا أم الأسير سقاك غيث ... تحير لا يقيم ولا يسير
أيا أم الأسير سقاك غيث ... إلى من بالفدا يأتى البشير ؟
أيا أم الأسير لمن تربى ... وقد مت – الذوائب والشعور ؟
إذا إبنك سار فى بر وبحر ... فمن يدعو له أو يستجير ؟
حرام أن يبيت قرير عين ... ولؤم أن يلم به السرور

---

(١) الوصم : العيب .
(٢) الصرم : القطيعة.

وقد ذقت المنايا والزوايا ... ولا ولد لديك ولا عشير
وغاب حبيب قلبك عن مكان ... ملائكة السماء به حضور
ليبكك كل يوم صمت فيه ... مصابرة وقد حمى الهجير
ليبكك كل ليل قمت فيه ... إلى أن يبتدئ الفجر المنير
ليبكك كل مضطهد مخوف ... أجرتيه وقد قل المجير
ليبكك كل مسكين فقير ... أغثتيه وما في العظم زير
أيا أماه كم هم طويل ... مضى بك لم يكن منه نصير
أيا أماه كم سر مصون ... بقلبك مات ليس له ظهورا
أيا أماه كم بشرى بقربي ... أتتك ودونها الأجل القصير
إلى لمن أشتكي ولمن أناجي ... إذا ضاقت بما فيها الصدور
بأى دعاء داعية أوقى ... بأى ضياء وجه استنير
بمن يستدفع القدر الموفى ... بمن يستفتح الأمر العسير
نسلى عنك أنا عن قليل ... إلى ما صرت في الأخرى نصيرُ

وكشاجم الشاعر رثى أمه وبكى عليها بقوله: -

أبعد مصاب الأم آلف مضجعا ... وأوى إلى خفض من العيش أوظلّ ؟
سترضع عينى قبرها من دموعها ... بما كلفته من رضاعى ومن حمل

إلى آخر الأبيات .

كذلك رثى الصنوبرى ابنته وبكى عليها بكاءا حارا ومن قوله يرثيها : -

ألا يا أيها القمرى كم ذا ... تغرد في الرواح وفى الكبور

أجـدك تشـتكى جـزعاً وتـبكى : لمفقـود كبـير أو صـغير
فقـع فـى بـاب قنسرين فانظر إلـى جـزع النسـاء على القبور
نسـاء فـى حـداد صـائحات كغـربان تصـايح فـى الوكـور
ينادين الأحـبة فـى صـخور وكـيف يجيب من تحت الصخور؟
سـأبكى مـا بكـى القمرى بنتى بـبحر مـن دموعـى بـل بحور
ألست أحق أن أبكـى عليهـا إذا بكت الطيور على الطيـور؟

فنرى كيف رثى الصنوبرى ابنته والمراثى تقال على السجية إذا فجـع الإنسـان بعزيز لديه والأبناء هم أعز ما يملك الإنسان فى حياته .

ولقـد فاق أبو نواس المتنبى وكشاجم فى رثاء الأم من حيث العاطفة .

وفـاق كشـاجم المتنـبى مـن حيث العاطفة وإن قصر فى المستوى الفنى عن المتنبى وأبى فراس .

كمـا نلاحـظ أن الصنوبرى وهو شاعر الطبيعة الأول فى عصـره قـد لجـأ إلـى الطبيعة فى رثائه وراح يشاركها همومها وأحـزانها ويـتخذ مـنها العظة والعبرة فى الحزن والبكاء فكما أن القمـرى يـبكى ويحزن على من يفقد وهو الطائر فكيف به لا يبكى ولا يحزن على فقده أعز من لديه وهى ابنته ونياط قلبه خاصة وأنها كانـت البنـت الوحـيدة لديه وقد فجع فيها فى حياته هذا وقد راح الصنوبرى يبكى كثيرا على ابنته الوحيدة ويزرف الدمع أنهاراً عليها

وتجلـــى الحـــزن الصادق العميق فى رثائه لها فى شعر يفيض أسى وحسرة وبقلب يذوب رقة ويمتلئ باللوعة والألم .

كذلـــك رأيـــنا من شعراء العهد الحمدانى من رثى نفسه من الشعراء وراح يتخيل موته وما يحدث له بعد الموت [١].

ويعـــد شعر الرثاء من الأغراض التقليدية والتى انتهج نهجها شعراء الدولة الحمدانية وساروا على منوال القدماء واحتذوا حذوهم اللهـــم إلا بعض اللمحات اليسيرة من التطور ، وقد تقدم أبو فراس الحمدانـــى علـــى شعراء عصره فى هذا الموضوع واحتل المرتبة الأولى فى شعر الرثاء فى عصره يتلوه الصنوبرى ثم المتنبى .

(١) ينظر ديوان أبى فراس .

شعر الهجاء :

ويعد شعر الهجاء من الأغراض الشعرية القديمة التى عرفها الشعراء منذ العصر الجاهلى ، حيث راح شعراء القبائل يهجون القبائل الأخرى المعادية ورجالاتها ويحطون من شأنهم ويرفعون قدر قبائلهم عليها ، وظل الهجاء كذلك فى عصر صدر الإسلام حيث راح الشعراء من كلا الفريقين : المسلمين والكافرين يهجون بعضهم بعضا ويدافع كل فريق عن أهله وعشيرته .

أما فى العصر الأموى فقد انتشر الهجاء انتشاراً واسعاً تبعا لاتساع رقعة الدولة وتعدد أحزابها السياسية : من أموية وشيعية وزبيريين وخوارج ولبس الهجاء وقتئذ ثوبا سياسياً حزبياً لم يعرف من قبل حيث اتخذ كل حزب من هذه الأحزاب من الشعراء من يقف بجانبه ويدافع عن معتقده ويهجو الأحزاب الأخرى، فضلا عن هذا النوع من الهجاء الاجتماعى والقبلى والذى ظهر بصورة كبيرة على أيدى : جرير والفرزدق والأخطل وظهر حينئذ ما يعرف بفن النقائض .

وظل الهجاء بنوعيه : السياسى والاجتماعى فى العصر العباسى الأول " وأصبح هجاء الشاعر ينصرف إلى تصوير مقابح المهجو وإظهار سوءاته والسخرية منه وتجلى ذلك واضحا عند ابن الرومى الذى كان يمزج السخرية بالهجاء وينتهى إلى صور فنية

لعله تفرد بها عن سابقيه ومعاصريه (١).

وقد ازدهر شعر الهجاء فى عصر الدول والامارات ازدهارا ملحوظا تبعاً لتعدد الدويلات واتساع أملاك الممالك الإسلامية وتعدد حواضرها وما ساد هذه الدويلات من صراعات وحروب وعلاقات اجتماعية داخل كل مجتمع منها .

وقـــد عـــرف الشعر الحمدانى فن الهجاء بنوعيه : الفاحش : الـــذى يستخدم الألفاظ البذيئة وذكر السوءات والعورات والتعرض للحـــرمات دون خجل أو حياء أو تحرج أو استحياء ويروح الشاعر فيه يصب جام غضبه وغيظه على المهجو وينتهك حرماته دون تقيد بدين أو مروءة أو أخلاق ، مع تصوير ماجن ومعان فاحشة .

وغـــير الفـــاحش : وهو الذى ينأى عن البذاءة والفحش فى القـــول ويستخدم الألفاظ العفيفة دون التعرض للحرمات أو العورات أو الســـوآت وإن ظهرت فيه أحياناً القسوة المعنوية ولكنه يبتعد عن الفحش فى القول لفظا ومعنى .

فمن الأول قول أبى القاسم الحسين المعروف بالواسانى وهو أحد الفضلاء المجيدين فى الهجاء وكان فى زمانه كابن الرومى فى أوانه فمن شعره قوله يهجو ابن أبى أسامة (٢):

يا ســـــاكنى حلـــــب العـــــوا صــــم جادهـــا صــــوب الغمامـــه

(١) صـــ ٤٣٧ فنون الشعر فيمجتمع الحمدانيين .

(٢) يتيمة الدهر جـــ ١ صـــ ٤٤٧.

أنـــا فـــى مدينـــتكم غـــريـــ ـــــب مـــن أهـــل الإقامـــة
والخـــان يظهـــر للغـــريـــ ـب إذا أبـــن بـــه ســـآمة
فقرضت مـــن طـــول المقا م بهـــا وأعوزت المدامـــة

إلى أن قال :

وإذا بأســـود كالفنـــيـــ ـــق يقـــل أيـــراً كالدعامـــة
وإذا بشـــيخ تحـــته حســـن الوســـامة والقســـامة
والشيـــخ يعصـــر تحتـــه قد بل مـــن عرق حزامـــه

وبقـــية القصيدة فى منتهى الفحش والإباحة وكلها ألفاظ بذيئة ومعـــان ساقطة ، وللشاعر نماذج أخرى من هذا القبيل وقد نحا فيها هذا النحو المشين .

ومن نماذج الهجاء غير الفاحش قول كشاجم يهجو عواده :

جـــاءت بعـــود مـــثلها ناقـــر كأنـــه نقـــنقة الضـــفدع
مضـــطرب الأوتـــار منقوضـــها مســـتقبح المدفـــع والمقطـــع
يـــود مـــن يســـمع أصـــواته لـــو فقـــد الســـمع فلـــم يســـمع
وأقبلـــت تضـــرب غـــير الـــذى تســـمع والـــنغمة لـــم تتـــبع
كأنمـــا قسمـــة تأليفهـــا مثلـــث مختلـــف الأضلـــع

والأمثلة على هذا اللون وهذا اللون كثيرة .

ويعد الهجاء من الفنون التى تطورت فى عهد بنى حمدان حيث تخلـــت بعـــض الشـــيىء عن التقاليد القديمة من حيث التنابذ بالأنساب وأصبح فن الهجاء فناً شخصيا خالصا مع غلبة روح الفكاهة فى اللون الثانى هابطاً إلى المستوى السوقى فى اللون الأول .

شعر الغزل :

كذلك يعد شعر الغزل من الأغراض القديمة وأكثرها شيوعاً وانتشاراً منذ العصر الجاهلى : حيث وجد الغزل : التقليدى والحسى والعفيف ، كما وجد الغزل بألوانه الثلاثة فى العصر الإسلامى وبلغ من انتشاره أن نظم فيه فقهاء المدينة المنورة مثل عروة بن أذينة وعبيد الله بن عتبة .

وشاع الغزل شيوعاً كبيراً فى العصر الأموى وظهرت دواوين بأكملها فى شعر الغزل كديوان عمربن أبى ربيعة ووجد الغزل العذرى لأول مرة فى عصر بنى أمية على أيدى الشعراء العذريين :مثل : قيس بن ذريح وقيس بن الملوح وجميل بن معمر وغيرهم .

ثم كان العصر العباسى الذى انتشر فيه شعر الغزل على كل لسان وعم العربى والأعجمى وكان أهم موضوع يشيع شعره على ألسنة الشعب بوجه عام وظهر ديوان العباس بن الأحنف وذنه فى الغزل العفيف فضلا عن ابتكار الغزل بالمذكر والذى يعد من اختراع العصر العباسى حيث اختلط العرب بالفرس وغيرهم من الأعاجم الذين نقلوا العادات الخبيثة التى تتنافى مع الدين والأخلاق حيث نشأ الغزل بالمذكر نتيجة الميل إلى الغلمان وارتكاب الفواحش معهم وهى ظاهرة سيئة وفدت إلى المجتمع العباسى من قبل الفرس وغيرهم من الأجناس المختلفة بأديانها وعاداتها ونظمها .

وقــد ازدهر شعر الغزل فى العصر العباسى الثانى – عصر الدول والامارات – انتشاراً كبيراً وربما تفوق على العصر العباسى الأول وبلـــغ شـــعراؤه مـــبلغاً كبيراً من الكثرة والعدد حيث زخرت الدويلات المستقلة بمئات من الشعراء الذين نظموا فى الغزل .

وكـــان شعر الغزل من الأغراض القديمة التى ازدهرت فى عهــد الحمدانييـــن وبلـــغ شعراء الغزل فى عهدهم عدداً كبيراً من الشـــعراء وأصـــبح يحـــتاج المقام لتدوين أشعارهم فى العزل إلى الصـــفحات الطويلة ، وبحيث أصبح شعر الغزل يعم جميع الشعراء فما من شاعر فى العهد الحمدانى إلا وله أشعار فى الغزل .

وقــد عرف العهد الحمدانى الغزل بألوانه الأربعة : التقليدى والعفيف والحسى والغزل بالمذكر ، وأصبح شعر الغزل يؤلف ديوانا ضخما بل دواوين من الشعر الغزلى باختلاف ألوانه وضروبه .

وقــد أخذ الشعراء الحمدانيون معانى وأساليب وصور ونهج القدمـــاء فـــى أشعارهم الغزلية ، فضلا عما ابتكروه فيه من معان وصور حيث يعد شعر الغزل من الأغراض التى تطورت فى دولة الحمدانييـــن وأضـــفى شعراء الحمدانيين عليه صبغتهم وأحاسيسهم وطبـــيعة بلادهـــم بما ابتكروه من صور وما أبدعوه من معان وما تغـــزلوا بـــه فـــى رحاب طبيعة بلادهم وما امتازت به هذه الطبيعة الخلابة من سحر وجمال .

وقــد نهـــج كثـــير مـــن الشعراء نهج السابقين فى استهلال

قصـــائدهم بالغزل والنسيب وكثر ذلك فى شعر المدح والفخر وبدا ذلـــك واضحا فى شعر المتنبى وأبى فراس والسرى الرفاء والوأواء الدمشـــقى والنامى وابن نباته وغيرهم ، وقد مضى مثالان فى ذلك عـــند الحديـــث عـــن شعر المدح ونموذج المتنبى.وعن شعر الفخر ونموذج أبى فراس .

ومن شعر الغزل العفيف قول المتنبى يتغزل ارتجالا [١]:

شـــوقى إلـــيك نفى لذيذ هجوعى ... فارقتـــنى فأقـــام بيـــن ضـــلوعى
أو مـــا وجدتم فى الصراة ملوحة ... ممـــا أرقرق فى الفرات دموعى[٢]
مازلـــت أحذر من وداعك جاهداً ... حـــتى اغـــتدى أسفى على التوديع
رحـــل العزاء برحلتى فكأنمـــا ... أتبعتـــه الأنفـــاس للتشييـــع [٣]

ويقـــول أبو فراس مصوراً ألم الحب وحرارة الوجد ومرارة الهوى[٤] :

وشـــادن قـــال لى لما رأى سقمى ... وضعف جسمى والدمع الذى انسجما
أخذت دمعك من خدى وجسمك من ... خصرى وسقمك من طرفى الذى سقما

ومن شعر العزل الرقيق قول الصنوبرى يصور شوقه وحبه تصويراً رائعاً :

تـــزايد مـــا ألقى فقد زايل الحدا ... وكـــان الهوى مزحاً فصار الهوى جداً

---

(١) ديوان المتنبى جـــ ١ صـــ ٢٤٨ – ٢٤٩ شرح المكبرى.
(٢) الصراة : نهر يأخذ من الفرات ويصب فى دجلة . ورقرق الماء : إذا صبه وكذا الدمع.
(٣) أتبعته : جعلته تابعاً لأنفاسى التى تنفست بها.
(٤) ديوانه صـــ ١٦٥ دار الكتب العلمية .

وقـد كنت جلداً ثم أوهنني الهوى ... وهـذا الهوى مازال يستوهن الجلدا
فلا تعجبى من غلب ضعفك قوتى ... فكـم من ظباء فى الهوى غلبت أسدا
غلبـتم على قلبى فصرتم أحق بى ... وأملـك لـى منى فصرت لكم عبدا
جرى حبكم مجرى حياتى ففقدكم ... كفقد حياتى لا رأيت لكـم فقـدا

ومن الغزل الحسى الصريح قول السرى الرفاء يتغزل بغادة جميلة [١]:

قامـت تمـيل للعـناق مقومـا ... كـالخوط أبـدع فى الثمار وأغربا
حملـت ذراه الأقحـوان مفضضا ... يسـقى المدامـة والشـقيق مذهبا
وأبدت وقد أخذ النقاب جمالهـا ... حركات غصن البـان أن تتصبا

وإذا كـان السـرى قد اهتم بالصورة الجميلة والألفاظ الموسيقية والمعانى الرقيقة والصياغة البارعة ، فإننا نجد شاعراً آخر وهو أبو القاسم الزاهى يتأنق فى غزله ويكثر من التشبيهات الرائعة فى قوله يتغزل [٢]:

وبـيض بألحـاظ العـيون كأنما ... هـززن سـيوفاً واسـتللن خناجرا
تصـدين لـى يوماً بمنعرج اللوى ... فغـادر قلـبى بالتصـبر غـادراً
سـفرن بـدورا وانتقبـن أهلـة ... ومسـن غصـونا والتفتـن جآذرا
وأطلعن فى الأجياد بالدر أنجمـا ... جعلن لحبات القلوب ضرائـرا

ومـن الغزل بالمذكر قول الصنوبرى يتغزل فى غلام يتعلم فى الكتاب :

انظـر إلـى أثـر المـداد بخده ... كبنفسـج الـروض المشوب بورده

---

(١) صـ ٤٥٧ جـ تهذيب العساكر.
(٢) صـ ٤٩ – ٥٠ جـ ٢ وفيات الأعيان.

مـــا أخطـــأت نوناته من صدغه	شــــيئاً ولا ألفاتــــه مـــن قـــده
ألقـــت أناملـــه علـــى أقلامـــه	شـــبها أراك فـــرندها كفـــرنده
وكأنمـــا أنفاســـه مـــن شـــعره	وكأنمـــا قرطاســـه مـــن خـــده
ما صـــد عنـــى حين صد تعمدا	لولا المعلـــم ما رميت بصـــده

ولم يتورع الشعراء الحمدانيون أن يتغزلوا بالغلمان حتى فى أماكن العبادة ، فهذا أبو طالب الرقى يتغزل فى غلام يقضى مناسك الحج حيث يقول :

ومشـــتمل ثوبـــى عفـــاف وفتـــنة	يـــرى قتل من يهوى إلى النسك مسلكا
إذا طاف بالأركان طاف به الورى	فيقضـــى ولا يقضـــون للحج نسكا
جنى اللحظ من خديه ورداً مورداً	ومـــن عارضـــيه ياســـمينا ممسكا
فيارائحاً منه بأوفـــر فتنـــة	تجهز لعام بعد هـــذا لعلكـــا (١)

ويقول الصنوبرى يتغزل فى غلام مسيحى :

أيســـكرنا بأجفـــان ســـكارى	ويعـــذل أن نحـــور مـــع الحيارى
رشـــأ أســـر الرشـــا بفتور لحظ	قلـــوب الخلـــق فـــى يـــده أسارى
يديـــن مـــع النصارى وهو عندى	جديـــر أن يديـــن مـــع النصـــارى
أقـــول لمشـــبه العـــذراء حســـنا	عـــلام رغبـــت عـــن دين العذارى
فما وحدي أغـــــار عليك لكـــن	جميع العالمين مغـــى غيـــارى

هذا وهناك نماذج كثيرة لشعر الغزل على اختلاف ألوانه فى الشـــعر الحمدانـــى سواء كان تقليديا أو حسيا أو عفيفا أو بالمذكر ،

---

(١) اليتيمة جـ ١ صـ ٢٨٣ جـ ١ محى الدين عبد الحميد.

فضلا عن أن شعراء العصر راحوا يمزجون الغزل مع الخمر تارة ومـــع الطبــيعة تارة ويمزجون الغزل بالفروسية تارة وبالتشيع تارة أخـــرى ، وكـــانوا لا يتحرجون من أن يتغزلوا فى المرأة أو الغلام دون حـــياء أو خجـــل حتى ولو كان ذلك فى أماكن العبادة التى لها حرمتها وقدسيتها .

وشـــعر الغزل الحمدانى ليس فنا مستحدثا حيث راح الشعراء يقلـــدون الســـابقين عليهم متأثرين بهم عدا ظاهرة التأنق اللفظى فى وصـــف الألفاظ وسبك الجمل والتلاعب بالألفاظ بشكل ملفت للانتباه حيـــث كـــثرت الصناعة اللفظية والتشبيهات والاستعارات البديعية ، فضلا عن مزج الغزل بالفروسية والحماسة والعقائد الشيعية .

وهـــذا يعد من قبيل التطور الذى انطبع فى الغزل الحمدانى وجـــاء نتيجة لكثرة الحروب التى خاضتها الدولة الحمدانية كما جاء نتـــيجة طبيعية للتشيع – وإن لم يكن مغاليا أو عقيدة مذهبية – الذى عرفه الحمدانيون .

***

شعر الخمر :

ويعد من الأغراض القديمة التى عرفت فى الشعر العربى منذ العصـــر الجاهلى كما رأيناه عند الأعشى ثم الأخطل فى عصر بنى أمـــية والذى ... أكثر من الخمرة ووصفها فى شعره حتى جاء أبو نـــواس فـــى العصر العباسى الأول وراح يصف الخمر ويكثر من وصـــفها ويدعو الناس إلى أن يشربوا الخمر والشعراء أن يصفوها ويستبدلوا المقدمة الطللية بوصفها وظل يقوم بذلك حتى أصبح شاعر الخمـــرة الأول فـــى عصره وبعد عصره وتأثر به شعراء العصور اللاحقة وتتلمذوا على شعره.

وشـــعراء الحمدانـــيون قـــد نظموا شعرا فى الخمرة ووصفها ووصـــف آلاتها ومجالسها والدعوة إلى شربها وإهدائها وراح الشعراء يتغـــنون بها كثيراً فى أشعارهم وقد أعانهم على ذلك ما تمتعوا به من فـــراغ وحـــياة اللهو والمجون وانتشار الأديرة والحانات وطبيعة البلاد الســـاحرة الفاتـــنة ومجـــالس اللهو المنتشرة فى كل مكان مما جعلهم يـــنظمون شـــعراً رائعـــاً فى الخمر وفيه كل بديع وكل كريف مبتكر خالعين عليه من روحهم ومشاعرهم وأسلوبهم المتأنق والجميل البديع .

وهـــناك كثـــيرون مـــن شعراء الحمدانيين قد وصفوا الخمر وأكثروا من ذلك أمثال : أبو الفرج الببغاء وأبو عثمان الخالدى وأبو بكر والسرى الرفاء وكشاجم والوأواء الدمشقى والصنوبرى والخليع الشامى وأبو محمد الفياض وغيرهم .

ومــن شعر الخمر فى عهد الحمدانيين قول أبى الفرج الببغاء يصفها [1]:

وعـــريقة الأنســـاب والشـــيم ... موجـــودة والخلـــق فـــى العـــدم
قدمـت فـلا تعـزى إلــى حدث ... إلا إذا عزيـــت إلـــى الهـــرم
هــى آدم الكــرم المولــد فى الد ... نـيا وحـوًا الخمـر فـى القـدم
كملـت فضـائلها وقصـر عـن ... أوصـافها الإغـراق فـى الكلـم
ظهـرت ونـور الشمس فى فلك ... مـن قـبل خلـق الصـبح والظلم
فـانهل جوهـرها بمنسـكب ... لـم يعتصـر بـيد ولا قـدم
واشـتق معـنى اسم السلاف لها ... مـن كونهـا فـى سـالف الأمـم
فكأنها فى صفوفهـا خلقـى ... وكأنها فـى عتقهـا كرمـى

وهـناك نمـاذج أخـرى كثـيرة فى ذلك فى شعر الدولة الحمدانـية، بما يدل على أن شعر الخمرة من الأغراض التى لاقت رواجـا وانتشاراً فى عهد بنى حمدان وبما يدل أيضاً على أن شعر الخمـرة كـان من الأغراض التى تطورت فى هذا العصر وأضفى عليها الشعراء من ظرفهم ورقتهم وخيالاتهم ومعانيهم المبدعة .

***

(1) يتيمة الدهر جـ ١ صـ ٢٦٢ .

شعر الطبيعة : -

يعد شعر الطبيعة من الأغراض الشعرية القديمة التى عرفها الشـــعر العربى منذ القدم وليس فناً جديداً على الشعر العربى ، فقد عـــرف الشعراء الجاهليون شعر الطبيعة بنوعيها : الحية مثل الخيل والنـــياق والذئـــب والماعز وبقر الوحش والضب والجراد والوعول والأوابـــد وغـــير ذلك ، كما ورد فى دواوينهم وكما جاء فى شعر امـــرئ القـــيس وطرفة وعنترة وغيرهم من شعراء الجاهلية الذين وصفوا الطبيعة الحية التى كانت فى بيئتهم كما عرفوا شعر الطبيعة الصامتة من : وصف الصحراء ومشاهدها ووصف الأطلال والمطر والليل والسحاب [١]. ووصف الرياض كما جاء فى وصف الأعشى للروضة حيث يقول[٢] :

ما روضة من رياض الحزن معشبة　　خضراء جاد عليها مسبل هطل
يضاحك الشمس منها كوكب شرق　　مـــؤزر بعمـــيم النبـــت مكتهل
يوماً بأطيب منها نشر رائحـــة　　ولا بأحسن منهـــا إذ دنا الأصل

إلا أن شعر الطبيعة لم يأت غرضاً مستقلاً فى أشعارهم وإنما كـــان خـــلال القصيدة الشعرية المتعددة الموضوعات ومع ذلك فقد

---

(١) يـــنظر علـــى سبيل المثال ديوان امرئ القيس صـــ ١٩ وديوان عنترة صـــ ١٠٠ وما ديوان طرفة وديوان أوس بن حجر صـــ ٤٢ .

(٢) ديوان الأعشى صـــ ١٤٥ ط بيروت عام ١٩٦٦م .

كانوا دقيقى الملاحظة والوصف عندما وصفوا ما فى بيئتهم وعبروا عن طبيعتهم .

واستمر الحال على ما هو عليه فى عصر صدر الإسلام ثم اتسع الأفق وعظم المجال أمام هذا الفن الشعرى حيث وصفوا الأشياء التى وجدت فى عصرهم فوصفوا الثلوج على الجبال والمياه التى تجرى [١] فى الأنهار فضلا عن الأشياء السابقة .

وظل وصف الطبيعة فى الشعر القديم جزءاً من القصيدة حتى جاء العصر العباسى الأول فأصبح شعر الطبيعة غرضا شعرياً قائما بذاته في قصيدة أو مقطوعة مستقلة بجانب شعر الطبيعة فى القصائد المتعددة الموضوعات واتسع مجال الطبيعة عما كان عليه سابقا وراح شعراء العصر العباسى الأول يصفون طبيعتهم الجديدة التى جاءت بها حضارة عصرهم من : وصف الرياض والأزهار والبساتين والفوارات ، والقصور والبرك وغيرها وجاء أبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز وقفزوا بشعر الطبيعة خطوات واسعة وبرعوا فى تصويرهم ورقوا فى أساليبهم ودققوا فى أوصافهم وأضافوا عليها من خيالاتهم وبراعتهم .

ولما كان العصر العباسى الثانى خطى شعر الطبيعة خطوات أوسع وأصبح رحابها منفسحاً خاصة فى عهد الحمدانيين " حيث وجدنا لشعر الطبيعة آفاقا رحبة ومذاهب متعددة وتفرع هذا الفن إلى

---

(١) ينظر ديوان جرير صـ ١٥٠.

فـروع كثـيرة وأضحى كل فرع منها يمثل موضوعا بعينه وراح شـعراء العصر يخصصون أبواباً مستقلة لهذه الفروع وظهر لكل فن بـاب مسـتقل مثل الروضيات لشعر الرياض ، "والزهريات لشعر الأزهـار والديارات لوصف القصور وغير ذلك .

وعـرف شعر الطبيعة في الدولة الحمدانية الطبيعة بنوعيها : الحـية والصامتة وراح الشعراء يصفون كل ما تتفتح عليه عيونهم من مظاهر طبيعة بلادهم سواء كانت طبيعة حية أو صامتة .

وكـان مـن وراء هـذا الازدهـار لشعر الطبيعة فى عهد الحمدانيين والتقدم الذى لم يسبق له مثيل من قبل عدة عوامل أهمها: طبـيعة هـذه الـبلاد الفاتـنة الساحرة التى تتمتع بالحسن والجمال والـروعة ومـا تخلـل هـذه الطبيعة من كثرة الأشجار والبساتين والرياض والأزهار والأنهار والفوارات والبرك والقصور والجبال .

فضلا عن : مجالس اللهو والترف وشراب الخمر فى رحاب الطبـيعة مما ساعد الشعراء وشجعهم على وصف الخمر فى رحاب الطبيعة فضلا عما تمتع به شعراء الحمدانيين من غنى وثراء وبزخ هـذا الغنى وهذا الثراء قد ساعدهم على الحياة اللاهية والإندفاع فى مجالسها وقضاء معظم أوقاتهم وسط هذه المجالس الفاتنة فى رحاب الطبيعة .

وقـد ساعدت هذه العوامل وغيرها على كثرة شعر الطبيعة

والتفنـــن فـــيها فـــى ظـــلال الحمدانيين وكثرة شعرائها كثرة هائلة وأصـــبحت لهـــم الريادة والقيادة لشعراء الدويلات الأخرى كشعراء الدولـــة البويهية والفاطمية والأيوبية وغيرها خاصة شاعر الطبيعة الأول فى عصره : الصنوبرى والذى أثر بدوره فى شعراء عصره وشعراء الدويلات الأخرى حيث راح شعراء هذه الدويلات ينهجون نهجـــه ويتخذونه أستاذا لهم فى فن الطبيعة حتى تسمى أحد شعراء الطبـــيعة فى الأندلس وهو ابن خفاجة الأندلسى بصنوبرى الأندلس مـــثلما تسمى ابن هانئ الأندلسى بمتنبى المغرب مما يؤكد مدى هذا التأثير الكبير الذى تركه شعراء الحمدانيين فى الدويلات الأخرى .

وفضلا عن الصنوبرى تفوق عدد كبير من شعراء الحمدانيين فـــى شـــعر الطبيعة أمثال : كشاجم والسرى الرفاء والخباز البلدى والـــوأواء الدمشـــقى والببغاء وأبو العباس النامى وأبو بكر الخالدى والواسانى وغيرهم من الشعراء .

وراح شـــعراء الدولـــة الحمدانية ينظمون فى الطبييعة شعرا رائعـــاً بارعاً فائتا حيث راحوا يصفون كل ما تقع عليه عيونهم من طبيعة بلادهم سواء كانت طبيعة حية مثل : الفرس والصقر والبازى والعقاب والببغاء والباشق والبيدق[١] وكلاب الصيد والزمج وغيرها مما عرفته بيئتهم .

---

(١) البـــيدق : مـــن الجوارح ولكنه صغير الحجم ولا يصيد إلا العصافير . والزمج : من الجوارح السريعة ويوصف بالغدر ويصيد فى البر والجو .

فمـــن وصـف الفرس : قول المتنبى فى إحدى قصائده يمدح سيف الدولة – يصف الخيل التى اشتركت فى المعركة.

تدوس بك الخيل الوكور على الذرى ... وقد كثرت حول الوكور المطاعم
تظـــن فـــراخ الفـــتخ أنك زرتها ... بأماتهـــا وهى العتاق الصلادم
إذا زلقت مشيتهـــا ببطونهـــــا ... كما تتمشى فى الصعيد الأراقم[1]

ووصـــف المتنبى للخيل هنا وصف جديد : فخيل سيف الدولة قويـــة نشيطة بارعة فى تسلق الجبال الشاهقة حيث أعشاش الطيور وهـــى ســـريعة فـــى تســـلقها قمم الجبال المرتفعة كأنها العقبان فى سرعتها والحيات فى زحفها .

كما وصف المتنبى " الباز" فى قوله : –

وطائــــــرة تتــــبعها المــــنايا ... علـــى آثارهـــا زجـــل الجناح
كـــأن الـــريش مـــنه فـــى سهام ... علـــى جســـد تجســـم من رياح
كـــأن رؤوس أقـــلام غـــلاظ ... مسحن بريش جؤجئه الصحاح
فأقعصـــها بحجـــن تحـــت صقر ... لهـــا فعـــل الأســـنة والـــرماح
فقلت لكـــل حـــى يوم موت ... وإن حرص النفوس على الفلاح[2]

---

(1) ديـــوان المتنـــبى جـــ ٣ صـــ ٣٨٩ ، والوكور : جمع وكر : عش الطائر . الذرى : رؤوس الجبال . الفتخ : إناث العقبان ومفردها : فتخاء ، الصعيد : وجه الأرض . الأراقم: الحيات

(2) ديوان المتنبى جـــ ١ صـــ ٢٥٩ – ٢٦٠ . الزجل : الصوت . الجؤجؤ : صدر الطير . القعـــص : دق العـــنق وهـــو الموت السريع . الحجن : الأسنة وأراد بالصقر : أصابعه وبالحجن مخالبه .

فالشــاعر يصــف الــباز بقوة طيرانه ويشبه ريشه بالسهام لســرعته وجعــل جسمه من رياح لسرعة اقتداره على الطير وشبه سواد صدره بروؤس أقلام غلاظ مسحن فى ثوب أبيض وهو تشبيه جمــيل مبتكر، وأن هذا الباز لقوته قتل هذه الحجلة قتلا سريعاً فدق عنقها .

ووصف كشاجم الباشق بقوله[١] :-

يســمو فــيخفى فى الهواء وينكفى ... عجــلا فينقض انقضاض الطارق
وكــأن جؤجــؤه وريــش جناحه ... خضــبا ينقشش يد الفتاة العاتق
وكأنمــا ســكن الهوى أعضاءه ... فأعارهــن نحــول جسم العاشق
ذا مقلــة ذهبــية فــى هامــة ... محفوفــة مــن ريشــها بحدائــق
ومخالــب مــثل الأهلــة طالما ... أدميــن كــفَّ الــبازيار الحاذق
وإذا انــبرى نحو الطريدة خلته ... كالريــح فى الأسماع أو كالبارق
وإذا القطاة تخلفت من خوفـــه ... لم يعد أن يهوى بهــا من حالق

ويقول كشاجم يصف صقراً احمر [٢]: -

غدونــا وطرف النجم وسنان غاتر ... وقــد نــزل الإصباح والليل ساتر
بــأجدل من حُمر الصقور مؤدب ... ولكــرم مــا قربت منها الأحامر
جــرئ علــى قــتل الظباء وإننى ... ليعجبنى أن يكعر الوحش طائر

---

(١) نهاية الرب جـ ١٠ صـ ١٩١ والباشق : من جوارح الصيد وهو ضئيل الحجم طويل الساقين والفخذين .

(٢) نهاية الأدب فى فنون الأدب للنويرى جـ ١٠ صـ ١٩٥ - ١٩٧.

قصـــير الذنـــابى والقدامى كأنها   قـــوادم نســـر أو سيوف بواتر
ورقـــس مـــنه جوجـــؤ فكأنـــه   أعارته أعجام الحروف الدفاتر
فمازلـــت بالإضمار حتى صنعته   وليس يجوز السبق إلا الضوامر
وتحملـــه مـــنا أكـــف كـــريمة   كمـــا زهيت بالخاطبين المنابر
وعـــن لنا من جانب السفح ربرب   علـــى سنن تستن منها الجآزر
فجلـــى وحلت عقدة السير فانتحى   لأولهـــا إذ أمكنـــتها الأواخـــر
يحـــث جناحـــيه على حر وجهها   كما فصلت فوق الخدود المعاجر
وما تم رجع الطرف حتى رأيتها   مصرعة تهوى إليها الخناجـــر

<u>أو كانـــت طبـــيعة صـــامتة</u> : وهي كل ما عدا الأحياء من : ريـــاض وأزهـــار وبرك وأنهار وفوارات وبساتين وأشجار وأثمار وثلجيات وسواقي وقصور ومتنزهات وديارات وجبال وأودية وغير ذلك من طبيعتهم .

حيـــث راح الشـــعراء الحمدانيون يصفونها كلها متفننين في أوصـــافهم معبريـــن عـــن مشاعرهم وعاكسين مظاهر وأثر طبيعة بلادهم في أشعارهم مصورين لها واصفين جمالها وصفاً رائعاً دقيقاً مفصـــلاً ، وجـــاءوا بالســـاحر والـــرائق والرائع من أشعار الطبيعة الصـــامتة ، مخترعيـــن أوصافاً جديدة ومعان مستحدثة وموضوعات مبتكرة في أسلوب عذب رقيق يذوب رقة ويتفجر روعة وفتنة مكثرين من التشبيهات الرائعة والاستعارات البديعة والصنعة اللفظية والتلاعب بالألفاظ تلاعبا يضيف سحراً وحركة إلى أوصافهم للطبيعة .

ولعل أبرع شاعر وصف الطبيعة الصامتة خاصة "الروضيات" و"الزهريات" الصنوبرى شاعر الطبيعة فى عصره ، يتلوه كشاجم والسرى والخباز البلدى حين أبدع هؤلاء فى وصفها وأتوا بشعر رقيق فيها ، يقول الصنوبرى يصف الرياض :-

رياض قويق لاتزال مروضة يجاور فيها أحمر اللون أبيضه
يعارضنا كافوره كل شارق إذا ما الصبا مرّت به متعرضه
لدى العوجان المستقادة عنده معان على حث الكؤوس محرضه
إذا ما طغا النيلوفر الغض فوقه مفتحة أجفانه أو مغمضه
حسبت نجوما مذهبات تتابعت فرادى ومثنى فى سماء مفضضه

ويقول كشاجم يصف روضة خضراء قد نزل عليها الغيث صباحاً ومساءاً ويصف الطل والشقائق ويشبهها بتشبيهات جميلة رائعة [1]:

وروض عن صنيع الغيث راض كما رضى الصديق عن الصديق
إذا ما القطر أسعده صباحا أتم له الصنيعة فى الغبوق
يعير الريح بالنفحات ريحا كأن ثراه من مسك فتيق
كأن الطل منتثرا عليه بقايا الدمع فى الخد المشوق
كأن غصونه سقيت رحيقا فماست ميس شراب الرحيق
كأن شقائق النعمان فيه مخضرة شقائق من عقيق
يذكرنى بنفسجه بقايا صنيع اللطم فى الوجه الرقيق

---

(١) زهر الآداب الحصرى جـ ٢ صـ ٢١٩.

حيث يشبه الطل المنثور على الرياض ببقايا الدمع فى خد المحب ويشبه الغصون وقد ارتوت بالماء الطيب وتمايل بها النسيم العليل بسكران يتمايل يميناً وشمالاً ويشبه شقائق النعمان بشقائق العقيق ويشبه البنفسج بآثار اللطم فى خدود الحسان الناعمات .

وهناك نماذج كثيرة تفيض بها دواوين شعراء العهد الحمدانى من وصف الروضيات حتى لتؤلف بمفردها ديوانا ضخماً متعدد الأجزاء .

ومن شعر الزهريات قول الصنوبرى يصف الورد والنرجس فى أسلوب يقوم على الحوار بينهما ويحاول كل منهما أن يظهر حسنه وجماله فيقول:

زعم الورد أنه هو أبهى   من جميع الأنوار والريحان
فأجابته أعين النرجس الغض   بذل من قولها وهوان
أيما أحسن النور أم مقـ   ـلة رئم مريضة الأجفان؟
أم فماذا يرجو بحمرته الور   د إذا لم يكن له عينان؟
فزها الورد ثم قال مجيبا   بقياس مستحسن وبيان
إن ورد الخدود أحسن من عيـ   ـن بها صفرة اليرقان

وهناك الكثير من النماذج الشعرية فى وصف الزهريات راح الشعراء يصيفونها إما مجتمعة مع بعضها كمجموعة من الأزهار المختلفة أو راحوا يصيفون كل زهرة بمفردها وصفاً يتلمسون فيه الحسن والجمال مشخصين الطبيعة تشخيصاً حياً كأنها كائنات حية تحس وتتحرك وتتحدث وتتفاخر وتجيب وتنادى شأن الكائن الحى

وراح الشـــعراء يـــتأملون جمـــال هذه الأزهار متغزلين فى جمالها مبرزيـــن محاسنها مضفين عليها من براعة أوصافهم وخيالهم وراح الشـــعراء يصـــفون كـــل الأزهـــار التى وجدت بطبيعتهم : كالورد والنرجس والياسمين وشقائق النعمان وزهر اللينوفر والسوسن فضلا عن الأثمار والفواكه التى وجدت فى عصرهم.

وصف المائيات والثلجيات : كذلك وصف شعراء الحمدانيين المائـــيات علـــى اختلاف مصادرها وأنواعها ، فقد وصفوا الأنهار والبرك والفوارات والسواقى والأمطار والسحب ، وإذا كان وصف هـــذه المائيات أو بعضها قد وصف قديما فإنها لم تبلغ الدرجة التى وصـــلت إليها فى العهد الحمدانى كما وكيفا وظهرت فى ثوب جديد خلعـــه علـــيها شـــعراء هـــذا العصر وأصبح وصف المائيات يمثل موضـــوعاً بعينه وأفرد له شعراء العصر بابا خاصاً به ولأول مرة فى تاريخ الشعر العربى فضلا عن الروعة والبراعة التى تجلت فى أوصـــاف هـــؤلاء الشـــعراء فاقت السابقين وتأثر بها اللاحقون من شـــعراء الدويلات الأخرى ، ومن وصف المائيات قول الصنوبرى يصف نهر دجلة فى ليلة مقمرة فضية من ليالى الخريف :

فلمـــا تعـــالى الـــبدر واشتد ضوؤه ... بدجلة فى تشرين بالطول والعرض
وقـــد قـــابل الماء المفضض نوره ... وبعض نجوم الليل يطفي سنا بعض
توّهم ذو العين البصيرة أنـــــه ... يرى ظاهر الأفلاك فى باطـــن الأرض

ويقول التنوخى يصف القمر على الماء وهو من أحسن ما قيل: –

أحســن بدجلــة والدجى متصوب والــبدر فى أفق السماء مغرب
فكأنهــا فيـــه بســـــاط أزرق وكأنه فيهــــا طراز مذهب(١)

هــذا وللأنهار قدر كبير من شعر المائيات فضلا عن وصف المائيات الأخرى .

وإذا كان وصف المائيات له أصول قديمة فى الشعر العربى كالرياض والأزهار وإن لم يصل إلى نفس المستوى الذى ظهر عليه فـــى عهــد الحمدانييـــن كما وكيفا وروعة فإن وصف الثلجيات يعد وصــــفاً جديــداً أوجــد لأول مرة عند شعراء الحمدانيين فلهم الفضل والسبق فى هذا المجال وكان الشاعران الحمدانيان الصنوبرى وكشاجم هما الشاعران اللذان يرجع لهما الفضل الأول فى وصف الثلجيات فى الشـــعر العـــربى وتأثـــر بهما وبشعرهما الشعراء الآخرون وإن تفوق كشـــاجم علـــى الصنوبرى فى هذا المجال فقد كان أكثر ابداعاً وأروع وصفاً وأوسع تصرفاً ، ومن ذلك قول كشاجم يصفه(٢):

الــثلج يســـقط أم لجيـــن يســبك؟ أم ذا حصى الكافور ظل يفرك؟
راحــت بـــه الأرض الفضاء كأنها مـــن كـــل ناحية بثغر تضحك
شـــابت ذوائـــبها فبيـــن ضـــحكها طـــربا وعهدى بالمشيب ينسك
أوفى على خضر الغصون وأصبحت كـــالدر فى قضب الزمرد تسلك
وتزيـــن الأشـــجار مـــنه مـــلاءة عمــــا قلـــيل بالـــرياح تهــتك

---

(١) يتيمة الدهر جـــ ١ صـــ ٩٣ ط محمد محى الدين عبد الحميد .
(٢) ديوان كشاجم صـــ ١٤٠.

كانــت كعــود الهند عريا فانكفت في لون أبيض وهو أسود أحلك
والجو من أرج الهــــواء كأنــــه ثــــوب يعنبر تــــارة ويمسك

كمــا وصف شعراء الحمدانيين : الفصول الأربعة والحرب وكــل شــيىء شاهدوه أمامهم ورآوه في بيئتهم فلم يشاهدوا شيئا إلا ووصفوه وصوروه .

<u>خصــائص شــعر الطبيعة</u> : -يتسم شعر الطبيعة في الشعر الحمداني بخصائص وسمات أهما ما يلي : -

أولاً : عرف شعر الطبيعة الحمدانية الطبيعة بنوعيها : الحية والصامتة ووصفوا منها ماشاهدوه في بيئتهم وما عاينوه في طبيعتهم فلــم يــنظموا شــعراً في الطبيعة في وصف الصحراء أو النوق أو غيرها من مظاهر الطبيعة القديمة التي لم تكن موجودة في بلادهم .

ثانــيا: الإكــثار من وصف الرياض والأزهار والتفنن فيها والدقة والتفصيل في جزئياتها وتلمس الجمال فيكل جزئية منها .

ثالثا : اتسع آفاق شعر الطبيعة وتعددت مذاهبها وتفرعت إلى فــروع عديــدة وأصبح كل فرع منها يمثل موضوعاً مستقلاً بعينه وأصــبح يفــرد له بــاب مســتقل مثل : وصف" الروضيات " و" الزهريات" و"المائيات" و" الثلجيات" و" الديارات " وغير ذلك .

رابعــا : جدت في شعر الطبيعة الحمدانية موضوعات جديدة لــم تكن معروفة من قبل مثل : الثلجيات ووصف الأطعمة وأدوات الكتابة والأدوات العلمية وغيرها .

خامســاً : ظهــر شــعر الطبيعة ظهوراً واضحاً فى قصائد شعرية مستقلة بعينها ، حيث نظم شعراء الطبيعة شعرهم فى قصائد كاملــة فضــلا عن المقطوعات الشعرية الكثيرة فى وصف الطبيعة وفضلاً عن وصف الطبيعة خلال قصائد شعرية أخرى .

سادسا: تشخيص الطبيعة وتجسيدها وإشاعة الحركة والحس بيــن أجــزائها وكأنها كائنات حية وذلك بفضل الاعتماد الكبير على ألوان الخيال واللعب بالألفاظ والعبارات .

سابعا : يصور شعر الطبيعة البيئة الحمدانية التى كانت تقيم فــيها الدولــة الحمدانــية وتظهر فيها الإقليمية بوضوح تام ، حيث ظهــرت مظاهــر الطبــيعة الخاصــة بالدولة وانعكست على شعر الشــعراء فعــبروا عــنها ووصفوها وصوروها تصويراً رائعاً فى أشــعارهم اظهــر جمـــال هذه المنطقة وروعتها وما تمتعت به من مظاهر طبيعية فاتنة .

ونخص وصف الحرب : حيث كثرت الحروب التى خاضتها الدولـــة الحمدانـــية ضــد أعدائها فى الخارج والداخل ، فقد كثرت حـــروب الحمدانييـــن مع الروم فى وقائع كثيرة حيث لم يكد أن تمر سنة دون حرب بين الفريقين وكان سيف الدولة الحمدانى هو أعظم القـــواد الذين حاربوا الروم وانتصروا عليهم انتصارات عديدة حيث قضى حياته كلها جهاداً فى سبيل الله مستلا سيفه ممتطيا جواده يقود الجـــيوش ويخـــوض المعارك حتى جعل وسادته التى وضع عليها رأســـه فـــى قبره لبنة جمعها من الغبار الذى تجمع على جسده أثناء الحروب ، ولازمه الشعراء فى حربه – خاصة المتنبى الذى قضى معـــه تســـع سنوات لازمه فيها فى حروبه وانتصاراته وراح يسطر مـــارآه فـــى قصائده وشعره فى صورة ملاحم شعرية رائعة تصور الـــبطولة العربية وتمجد النحوة العربية والإسلامية وتفاخر بالعرب والمسلمين وانتصاراتهم على جحافل الشرك من جيوش الروم .

وفضلا عن هذه الحروب التى دارت بين الدولتين : الحمدانية والبويهـــية أيام ناصر الدولة الحمدانى ومعز الدولة البويهى وفضلا عـــن الحـــرب مـــع الإخشيديين وفضلاً عن الحروب ضد الثورات الداخلـــية والقلاقل التى قامت بها بعض القبائل ضد بنى حمدان مثل خروج بنى كلاب على سيف الدولة .

وقـــد استطاع شعراء الدولة الحمدانية – خاصة المتنبى الذى لازم ســـيف الدولة وشاهد حروبه بنفسه واطلع عليها عن قرب وأبو فـــراس الحمدانى الذى شارك فى هذه الحروب بسيفه ورمحه – أن

ينـتجوا لـنا شـعراً فى الحرب مبدعاً يرتفع إلى شعر الملاحم فى أسلوب جزل رصين وتصوير بارع ووصف دقيق للحرب وأدواتها ومواقعها وتصوير النصر والهزيمة وآثارهما على النفوس بصورة لـم يسـبق لهـا مثيل من قبل إلا قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية وأشعار مسلم بن الوليد فى مدح يزيد بن مزيد الشيبانى وإذا استثنينا هذيـن العمليـن فإن المتنبى يعد صاحب هذا الفن الشعرى وهو — تصـوير الحروب ووصف المعارك — ومؤسسه ثم سار على نهجه أبو فراس الحمدانى وإن لم يصل إلى درجة المتنبى فى هذا الميدان الـذى استطاع أن ينتج نوعاً جديدا ونمطاً فريداً فى الشعر العربى وبهـذه الكـثرة التى جاءت فى شعره ، ومن ذلك قوله فى قصيدة يمـدح فيها سيف الدولة ويصور حربه ضد الروم بقيادة الدمستق وماحدث فيها من هزيمة منكرة للروم وجيشهم :

أتـى مرعشـاً يستقرب البعد مقبلا	وأدبـر إذا أقبلت يستبعد القربا
كـذا يـترك الأعداء من يكره القنا	ويقفـل من كانت غنيمته رعبا
وهـل رد عـنه باللقـان وقوفـه	صدور العوالى والمطهمة القبا؟
مضـى بعدما التف الرماحان ساعة	كمـا يتلقى الهدب فى الرقدة الهدبا
ولكـنه ولـى وللطعـن سـورة	إذا ذكـرتها نفسـه لمس الجنبا
وخلـى العذارى والبطاريق والقرى	وشعث النصارى والقرابين والصلبا
أرى كلـنا يـبغى الحـياة لنفسـه	حريصا عليها مستهاماً بها صبا
فحـب الجـبان النفس أورده التقى	وحب الشجاع النفس أورده الحربا
ويختلف الرزقان والفعـل واحـد	إلى أن يرى إحسان هذا لذا ذنبا

"الدولة البويهية"

ينتسب البويهيون إلى أسرة فارسية من الديلم ولم تكن هذه الأسرة معروفة من قبل المؤرخين قبل التوسع الديلمي وكل ما يعرفه المؤرخون عنها أنها تبدأ بأبى شجاع بويه الديلمى وكان رجلا فقيرا صيادا على بحر قزوين ويعيش هو وأبناؤه الثلاثة : على والحسن وأحمد على الصيد واحتطاب الحطب حيث كان أولاده الثلاثة يحتطبون .

ومن شدة الفقر الذى كانت تعيش فيه الأسرة أدخل بويه أولاده الثلاثة فى خدمة قواد الديلم جنودا مرتزقة وفى خدمة ما كان كاكى فتقلبت بهم الأحوال حتى أصبحوا ملوكا وقد خضعت لهم الرقاب ودانت لهم البلاد وأصبح لهذه الأسرة التى أسسها الإخوة الثلاثة أبناء بويه مكانة مرموقة وشأنا مرتفعا فى التاريخ الإسلامى وأسروا إلى بعض الكتاب والمؤرخين أن ينشئوا لهم نسبا عاليا مشرفا يصلهم بالملك الساسانى بهرام جور ملك الفرس ليجمعوا المجد من أطرافه ومهما يكن فإن هذه المسألة من نسيج الخيال ولم تكن واقعا وحقيقة ومن وحى الغرور الذى غالبا ما يصيب بعض الأسر أو الأشخاص الذين ترتفع مكانتهم بعد الخمول والضعة .

التحق بويه وأبناؤه الثلاثة بخدمة ما كان كاكى حتى إذا انتصر عليه " مرداويج " مؤسس الدولة الزيارية انضم إليه بويه وأبناؤه الثلاثة وأيدوه فى حروبه ضد الدولة الزيدية العلوية

بطبرستان فولى عليا بن بويه الكرج فى الجنوب الشرقى من همذان سنة ٣٢٠هـ ثم استولى على بن بويه على فارس وأرجان واتخذ شيراز مقرا لحكمه وقتل مرداويج سنة ٣٢٣هـ فاستولى هو وأخوه الحسن على أصفهان والرى وتولى الحسن شؤنهما وشئون بلاد الجبل واستولى أخوهما " أحمد بن بويه " على كرمان وظل يتقدم نحو الغرب حتى استولى على الأهواز سنة ٣٢٦هـ ثم استولى على واسط ثم وجد أحمد بن بويه الفرصة السانحة أمامه فتوجه غربا إلى بغداد ودخلها سنة ٣٣٤هـ فى شهر جمادى الأول أيام الخليفة المستكفى الذى رحب به منقذا ومخلصا ولقبه بلقب " معز الدولة " ولقب أخاه عليا صاحب فارس وشيراز بلقب " عماد الدولة " ولقب أخاه الحسن بلقب " ركن الدولة " وجعل معز الدولة أمير الأمراء ، وراحوا يسوسون المملكة ويستبدلون فيها واستولوا على الخلافة وخلعوا المستكفى بالله وسملت عيناه وراحوا يعزلون الخلفاء ويولون غيرهم تبعا لرأيهم وهواهم وأحيوا معالم التشيع حيث كان الديلم من الشيعة العلوية وأضعفوا نفوذ الأتراك والخلافة العباسية لا تزال فى بغداد .

وظل معز الدولة يلى شئون بغداد والعراق والأهواز وكرمان إلى أن توفى سنة ٣٥٦هـ وخلفه ابنه " عز الدولة " بختيار ، وكانت

ولاية فارس قد آلت إلى " عضد الدولة " ابن ركن الدولة " منذ وفاة عمــه " " عماد الدولة " سنة ٣٣٨هـ حيث لم ينجب ولدافآلت ولايته إلــى أخيه " ركن الدولة " فمنحها ابنه " عضد الدولة " وتوفى ركن الدولــة سنة ٣٦٥هـ وترك لابنه عضد الدولة أقاليم : فارس وكرمان وأرجــان وشيراز ولأخيه" مؤيد الدولة " الرى وأصفهان ولأخيهما " فخــر الدولة " همذان والدينور وجعل " لعضد الدولة "الرياسة على أخويه ، ثم ساءت العلاقة بين عضد الدولة وبين ابن عمه بختيار بن معز الدولة وقامت بينهما حروب قتل فيها بختيار سنة ٣٦٧هـ وبذلك دخلت بغداد وما تبعها من العراق فى حيازة " عضد الدولة " .

ويعــد عضــد الدولة : أعظم ملوك بنى بويه واتسع سلطانه وأول مــن خطــب لــه على منابر بغداد بعد الخلفاء وأول من لقب بشاهنشــاه " ملــك الملوك " فى الإسلام وأصبح البويهيون من بعده يلقــبون بهــذا اللقــب وأظهر عضد الدولة قوته وشدته فى سياسته وقضــى على الخارجين وأمن الطرقات وحفر الأنهار وأمر بعمارة مــنازل بغــداد وعمارة المساجد وعنى بالبساتين وأجرى الرواتب للعلمــاء من كل صنف واستطاع أن يحدث نهوضا واسعا وتقدما فى كــل مــناحى الاتجاهات كما كان عادلا سياسيا ذكيا يعطى الفقراء والمســاكين إلا أنه توفى سنة ٣٧٢هـ وكان قد قسم مملكته بين أبنائه

الـــثلاثة : شـــرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة ، ولم ينجح صمصام الدولة فغلبه أخوه شرف الدولة واخذ منه بغداد وحبسه ، ثم يتوفى شرف الدولة سنة ٣٧٩هـ بعد أن عهد بالملك لأخيه بهاء الدولة الذى ظل حاكما لبغداد والعراق إلى أن توفى سنة ٤٠٣هـ ثم توزعت الدولـــة بعده إلى أبنائه الأربعة : مشرف الدولة وقوام الدولة وجلال الدولة وأبى شجاع سلطان الدولة ، ثم يتوفى سلطان الدولة الذى كان يتولى أمر بغداد سنة ٤١٥هـ ويتولى أخوه مشرف الدولة سنة ٤١٦هـ ويستأثر أخوهما جلال الدولة بحكم بغداد والعراق ويطول حكمه إلى أن يـــتوفى سنة ٤٣٥هـ ثم يخلفه أبو كاليجار بن سلطان الدولة حاكم فارس والأهواز الذى توفى سنة ٤٤٠هـ ويخلفه ابنه أبو نصر الملقب بالملك الرحيم وكان ضعيفا حيث كانت الدولة السلجوقية يعظم أمرها ويشتد خطرها بقيادة : طغر لبك فى خراسان وشطر كبير من إيران فكتـــب إلـــيه الخليفة العباسى القائم بأمر الله يستنهضه بالمسير إلى بغداد سنة ٤٤٦هـ ثم دخل بغداد وقضى نهائيا على الدولة البويهية ، وهكذا امتدت سلطة البويهين على العراق وفارس وخراسان إلى سنة ٤٤٧هـ حيـــث دخـــل السلاجقة بغداد واحتلوها وقضوا على الدولة البويهية وعملوا على إحياء مذهب أهل السنة وانتشاره .

ومـمـــا تقـــدم يتضح لنا أن الدولة البويهية لم تنشأ عن الدولة

العباسية كالدولة السامانية والدول الطاهرية وإنما أنشأتها أمة فارسية بالسيف قد وقفت موقف العداء للخلفاء العباسيين ولم يكونوا كأسلافهم الفارسيين الذى أسهموا فى إقامة الدولة العباسية ومؤازرة خلفائها فضلا عن الديلم فقد كانوا شيعة متعصبين مغالين ويعتقدون أن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة من أصحابها الشرعيين فلم يكن هناك باعث دينى يرغمهم على الطاعة والاحترام بل لم يسلم الخلفاء العباسيون من ظلمهم وسوء معاملتهم للشعب وفضلا عن الحروب التى شغلتهم مع الحمدانيين والسامانيين والزياريين والحروب بين الديلم والترك وبين السنة والشيعة بل وبين أمراء البيت البويهى نفسه فصرفهم ذلك عن الاهتمام بشئون البلاد والعباد فضلا عن أنهم قد تعصبوا للشيعة ومذهبهم وأرغموا أهل السنة على الاشتراك فى أعياد الشيعة كاحتفالهم فى العاشر من المحرم ، والثامن عشر من شهر ذى الحجة : ذكرى مقتل الحسين وذكرى يوم غدير خم كما يزعمون .

حالة الأدب فى عهد البويهيين :

علـــى الـــرغم مـــن سوء الحالة السياسية والاجتماعية التى عاشـــتها الدولــــة البويهية فقد كان الأدب والشعر مزدهرين فى عهد البويهييـــن حيـــث كـــان البويهيون يحبون العلم والأدب ويفسحون صدورهم للأدباء والشعراء ويغدقون عليهم الأموال والهبات الثمينة وكـــانوا يستوزرون الكتاب والشعراء ويولونهم مناصب الدولة العليا والإداريـــة والحربـــية ، كابن العميد والصاحب بن عباد وسابور بن أردشـــير والمهلـــبى فضـــلا عن الأدباء من العمال والقضاة وكتاب الدولـــة ، فقد كان للأدب والشعر منزلة كبيرة عند البويهيين بالرغم من أنهم فارسيون وعملوا جاهدين على نشر الأدب والشعر ، حيث كانـــت للشـــعر خاصـــة عندهم منزلة عالية وكان كثير من هؤلاء الشـــعراء يعيشـــون بســـبب شعرهم ويرتقون إلى منصب الوزارة بشعرهم ومكانتهم فكثر فى شعرهم شعر المديح للملوك والتملق لهم وتـــنافس هـــؤلاء الشـــعراء على استرضاء الملوك والحظوة لديهم وكـــثرت المنافســـات بيـــن الشعراء وبعضهم البعض لبلوغ المكانة المـــتقدمة عند السلاطين مما كان باعثا على هجاء الشعراء لبعضهم البعض .

على أن كثير من ملوك آل بويه قد اشتهر فى الأدب والشعر وأشـــهرهم : عضد الدولة الذى أحب العلم والعلماء والأدب والأدباء فقربهم إليه وأحسن وفادتهم واستحثهم على الأدب والشعر والكتابة :

فألف له أبو إسحاق الصابى كتاباً فى أخبار بنى بويه سماه : التاجى.

وألف له أبو على الفارسى كتاب " الإيضاح " فى النحو ، كما قصده فحول الشعراء فى عصره : كالمتنبى والسلامى وغيرهما كما كـان يعقـد الـندوات الأدبـية والشعرية ويباسط الأدباء والشعراء ويباحـثهم ومن شدة شغفه بالشعر أنه تمنى أن يكون هو المصلوب بـدلا مـن ابـن بقية الوزير الذى رثاه محمد بن عمران الأنبارى بالقصيدة التى مطلعها :

علو فى الحياة وفى الممات لعمرك تلك إحدى المعجزات

بل إنه كان ينظم الشعر وينتقده ويعرف خباياه الفنية .

وكـان عـز الدولـة بختـيار يحب الشعر والأدب ويقرب أصحابهما إليه بل إنه كان نفسه شاعراً ينظم الشعر وكذلك كان تاج الدولـة أشهر شعراء وأدباء آل بويه وكذلك كان أبو العباس خسرو ابن ركن الدولة وغيره .

وركـن الدولة استوزر ابن العميد الكاتب المشهور وكان ابن العمـيد نفسـه مقصـداً للشعراء والأدباء وأهل العلم ويغدق عليهم ويقـربهم إلـيه ، وبهاء الدولة استوزر ساور بن أردشير فأنشأ هذا الوزير خزانة كتب وقفها لإفادة الناس فى كرخ بغداد .ومعز الدولة ابـن بويـه استوزر الحسن المهلبى وكان المهلبى شاعراً أديباً وهو صاحب الأبيات المشهورة :

ألا موت يباع فأشتريـه فهـذا العيش مالا خير فيه

وكـــان أكـــثر وزراء هـــذه الدولة أثراً فى النهضة الأدبية والشـــعرية فى دولة آل بويه : الصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة وكـــان شـــاعراً كبـــيراً وكاتبا وعالما جليلاً وكان يجتمع عنده من الشعراء والأدباء وأهل العلم بالعشرات .

وقـــد أحســـن البويهـــيون صنعاً حينما اختاروا أكفأ الوزراء والكـــتاب لإدارة دولتهم وسياسة شؤونها حيث امتاز هؤلاء الوزراء الأكفـــاء كابـــن العميد والصاحب بن عباد والوزير المهلبى وسابور وغـــيرهم مـــن هؤلاء الوزراء بالقدرة البلاغية والأدبية والشعرية بجانـــب قدرتهم على إدارة الدولة سياسيا وحربيا فهيأوا لنهضة أدبية وشـــعرية كبـــيرة ازدهـــرت فى مختلف الأقاليم التى ضمتها الدولة البويهية .

ونتيجة لهذا التشجيع من جانب الملوك والأمراء البويهيين أن كثر الشعراء حولهم وراح هؤلاء الشعراء يمدحون الملوك ويشيدون بمآثـــرهم وبمـــا سطروه فى أرجاء دولتهم من أعمال ونهوض وبما حققوه من انتصارات وبطولات على أعدائهم فكثر شعر المدح لذلك واحتل مرتبة متقدمة وسط أغراض الشعر العربى فى عهد بنى بوية خاصـــة وأن شعراء الدولة قد تنافسوا فيما بينهم وحاول كل منهم أن يـــأخذ المكانـــة العليا وأن ينال الحظوة الأولى عند الملوك والأمراء وراح كـــل مـــنهم يقدم أحسن ما عنده من شعر يمدح فيه الملك أو الأمـــير حـــتى يـــنال أعظم الجوائز وأثمنها فنما لذلك شعر المدح

وازدهر ازدهاراً كبيراً فى عهد البويهيين واحتل المرتبة الأولى بين أغـــراض الشعر فى عهدهم وقد تميز شعر المدح البويهى بالمبالغة والغلـــو فى إضفاء الصفات على الموحدين تبعا للغلو والمبالغة التى أضـــفاها الملوك على أنفسهم ولقبوا أنفسهم بأبلغ الألقاب والصفات وغالوا فى ذلك غلوا كبيراً فظهر أثر ذلك فى الأشعار التى تناولتهم بالمدح والإشادة .

ولقـــد أثـــرت الحالـــة السياسية التى عاشتها الدولة فى عهد البويهييـــن فـــى الأدب البويهى والشعر منه على وجه خاص تأثراً كبـــيراً ، خاصة وأن الأدب ظل الحياة التى يعيش فيها وانعكاس لها وأثـــر مـــن آثارها : السياسية والاجتماعية والثقافية بل والاقتصادية أيضـــا لأن الأديب وهو عنصر من عناصر المجتمع لا يستطيع أن ينأى بنفسه عن أحداث الحياة والمجتمع الذى يعيش فيه ولا يمكنه أن يعـــيش مـــنعزلاً عـــن جماعـــته وأمته التى ينتمى إليها أو يقف من الأحـــداث التى يشاهدها أمامه ويراها بعينيه ويسمعها بأذنيه موقف المـــتفرج دون أن ينفعل بها ويعبر عنها ويشارك بأدبه وشعره فيها لأنه عضو مهم فى المجتمع الذى يعيش فيه خاصة وأن الأديب يملك حساً مرهفاً ومشاعر رقيقة فيتأثر بما يدور حوله من أحداث وينفعل بهـــا ويعبر عنها فى أدبه وشعره ، فالأديب يأخذ مادته من مجتمعه وأحداثـــه وبيئته وما يدور فى مجتمعه من أحداث سياسية واجتماعية وثقافـــية والأديـــب الناجح هو الذى يغوص فى أحداث مجتمعه وما

يدور فيه من القاع إلى القمة ويصور كل مايشاهده مظهرا صدى ما يراه على نفسه ومشاعره بكل الصدق والوضوح .

فمن الطبيعي إذن أن يتأثر أدباء العهد البويهي بأحداث دولتهم وينفعلوا معها ويعبروا عن نظرتهم ومشاعرهم تجاه ما يشاهدونه خاصة أنهم قد عاشوا في فترة انقسمت فيها الدولة الإسلامية وتجزأت بعدما كانت دولة واحدة وتفككت وتداعى بنيانها وتفاوتت طبقات المجتمع تفاوتا ملحوظا وتحللت المجتمعات من كثير من العادات والتقاليد الاجتماعية والدينية وأصبح الناس يعيشون حياتهم في حرية واسعة من القول والرأي والعقل .

وراح الأدباء والشعراء يشاركون في أدبهم وأشعارهم في الشؤون العامة للدولة كالسياسة والإدارة والحروب وساعدهم على ذلك تشجيع الملوك والأمراء والوزراء لهم وراحوا يصورون العدل والمساواة والظلم والنصر والهزيمة والوعيد والتهديد والتولية والعزل وغير ذلك كما اتصل هؤلاء الشعراء بالحكام ودخلوا القصور وشرحوا سياستهم وما يدور في كل شئون الدولة ، فقد كان الأدباء والشعراء ألسنة الملوك والحكام .

وراح الشعراء يكثرون من شعر المدح على نحو لم يسبق له مثيل من قبل فقد كان شعر المدح – بجانب الرسائل الديوانية – هما الأدب الرسمي للدولة البويهية حيث كانا يصدران عن بلاط الملك أو قصر الوزير فيمتدح الملك أو الوزير أو رجال الدولة .

وراح هؤلاء الشعراء يتنقلون بين العواصم ويحتشدون حول الملوك والوزراء يمدحونهم بالعدل والحزم والشجاعة والكرم وضبط الأمـــور وهـــم يعلمـــون أن الممدوحين لم يكونوا من العدل والحزم وضـــبط الأمـــور فـــى شيىء وإنما فعلوا ذلك تقرباً إليهم وأملاً فى الحظـــوة لديهـــم وطمعـــا فى المال الذى تجمعه خزائنهم ، فقد كان هـــؤلاء الشعراء باعة متجولين يبيعون الشعر فى أسواق المديح فإذا راج وارتفع سعره تفتحت قرائحهم وكثر نتاجهم وإذا كسد وانخفض ثمنه تراجع طبعهم وقل نتاجهم[١] ".

وراح شـــعراء العهد البويهى يغالون فى أشعارهم فى المدح مجـــاراة لمغـــالاة الممدوحين فى ألقابهم ورغباتهم ونزعاتهم وراح الشـــعراء يغالون فى معانيهم وأسرفوا فى ذلك إسرافاً شديداً وراحوا يزيفون فى عواطفهم مبتعدين عن صدق مشاعرهم وعواطفهم حتى يـــنالوا الحظوة والرضا من قبل الممدوحين الذين كانوا يؤثرون ذلك ويحـــبون أن يظهـــروا بمظهـــر العظمة والجلال ، وراح الشعراء يبالغـــيون فى مدائحهم مستخدمين المبالغة والغلو والإسراف واللعب بالألفـــاظ والمجـــازات البعـــيدة والاســـتعارات العديدة فى معانيهم وأسلوبهم ، ويتجلى مثل ذلك فى قول الرستمى فى مؤيد الدولة [٢]:

أيـــا ملكـــا فاق الملوك وبذهم   فـــراح ســـناناً والملـــوك عوامل

---

(١) صـــ ١٤٣ الأدب فى ظل بنى بويه . محمود الزهيرى ماجستير ١٩٤٩م..

(٢) يتيمة الدهر جـــ ٣ صـــ ١٣٢.

ينير الدجى من وجهه وهو حالك ... ويندى الثرى من كفه وهو ماحل
وذو لحظات كلهن فواضل ... وذو حركات كلهن فضائل
دهاء لديه رأى أكثم قائل ... وجود لديه حاتم الجود باخل
وحلم لديه ركن يذبل ذابل ... وعزم لديه فارس الخطب راجل

ويقول البديع فى صاحب الجيش :

وكاد يحكيك ثوب الغيث منسكبا ... لو كان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لو لم يحن والشمس لو نطقت ... والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا
يامن يراه ملوك الأرض فوقهم ... كما يرون على أبراجها الشهبا

فقد كان شعراء الدولة البويهية يأتمرون بأمر ملوكهم ووزرائهم ويخضعون لسلطان أموالهم وهباتهم فيمدحونهم ويغالون فى مدائحهم كثيرا وما هذه المغالاة وتلك الإسراف إلا أثر من آثار سياسة الملوك والحكام البويهيين التى أخضعت الأدب لخدمتها وأغراضها ونشر سياسة البويهيين وتمكين سلطانهم وتقويته .

وبجان هذا الأدب والشعر الرسمى للدولة البويهية الذى طغى عليه الغلو والإسراف والكذب والتملق والنفاق واللعب بالألفاظ فكان هناك تيار مضاد لهذا التيار الرسمى حيث وجدنا أدباً وشعراً بعيدين عن كل تملق ونفاق وغلو وظهرت فيه الحقائق العارية واضحة جلية دون تجميل أو تلفيق أو طلاء أو تمويه وكان هذا الأدب صدى لهذا الفساد الذى ساد دولة البويهيين من الحكام والولاة وكل أدوات الحكم فى الدولة وكانه كان رد فعل ومناقضة لهؤلاء الأدباء والشعراء

الرسميين ، تجلى ذلك فى هذا الشعر وذاك الأدب الذين يعبران عن الأســى الشــديد والحزن العظيم لما حل بالخلفاء العباسيين من أذى وعســف علــى أيــدى البويهيين وولاتهم وقضاتهم وراح الشعراء ينــتقدون الملــوك والقضــاة ويهجونهم على ظلمهم وسوء سياستهم ومعاملتهم .

ومن ذلك قول الشريف الرضى حينما دخل بهاء الدولة ومعه جمــع كثــير من الديلم إلى مجلس الخليفة وكان الخليفة جالساً على كرســى ودخل أحد الديلم كأنه يريد أن يقبل يد الخليفة فجذبه وأنزله من على سرير الملك والخليفة يقول : إنا لله وإن إليه راجعون وهو يســتغيث وأخذ مافى دار الخليفة من الذخائر وكان الشريف الرضى جالساً فى هذه الجلسة فقال فيها :

أمسيت أرحم من أصبحت أغبطة   لقــد تقــارب بين العز والهون
ومــنظر كان بالسراء يضحكنى   يا قرب ما كان بالضراء يبكينى
هيهات أغتر بالسلطان ثانيــــة   قد ضل ولاج أبواب السلاطين

ومــن الهجاء قول ابن سكرة الهاشمى فى هجاء القاضى أبى السائب :

إن شــئت أن تبصــر أعجوبــة   مــن جــور أحكام أبى السائب
فــاعمد مــن الليــل إلى صرة   وقــرر الأمــر إلــى الحاجب
حتى تــــرى مروان يقضى له   على علىّ بن أبــــى طـــــالب

وهكذا ظهرت مظالم الحكام والقضاة ورجال الدولة فصورها الشعراء فى شعرهم .

وإلـــى جانـــب هـــذا التشجيع من الملوك والأمراء والوزراء للشعر والشعراء والأدباء بوجه عام أثر فى هذه النهضة الأدبية وهذا الازدهـــار فـــى الشعر فى هذا العهد والدولة البويهية: هذه الأحداث السياســـية والـــثورات والحروب الداخلية والخارجية التى خاضتها الدولـــة البويهية ، فكثر شعر الحرب وتصوير المعارك والبطولات ورثاء القتلى ووصف الجيوش وغير ذلك .

كذلـــك أثر فى الشعر البويهى طبيعة البلاد التى ضمتها هذه الدولـــة وهـــذه البيئة التى عاش فيها سكانها وهذه العادات والتقاليد المخـــتلفة الـــتى بـــرزت على ساحة المجتمع البويهى وشملت كل عناصره من عرب وفرس وترك وديلم وسنة وشيعة وغير ذلك من عناصر وطوائف المجتمع البويهى : فظهر شعر الطبيعة الذى يصف ويصور هذه البيئة وما فيها من مظاهر طبيعية أو اصطناعية وجاء شـــعر الطبيعة مصوراً لمظاهر هذه الطبيعة الحية والصامتة والتى تميزت بها هذه الأرض التى ضمتها الدولة ، فجاء شعر الطبيعة فى: وصف الرياض والبساتين والأنهار والمياه الجارية والينابيع المتفجرة ووصف الأشجار المثمرة والرياض الزاهرة وراح الشعراء فى هذه الدولـــة يهـــيمون بالطبـــيعة ويعشـــقون الأزهار والحدائق والثمار ويصفون الخمر فى مجالسهم بين الغصون والأزهار والمياه الجارية

بــل راح الشـــعراء يمعنون فى وصف الخمر ويكثرون من وصفها خاصة وأنها عادة فارسية من قديم الزمان فمن الطبيعى أن يتوارث ســكان هذه البلاد تلك الميول وهذه العادات جيلا بعد جيل ويشربون الخمر ويعتبرونها لذة الدنيا وبهجة الحياة .

ومــن الطبــيعى أيضا أن يحفل الشعراء بفصل الربيع وهو الفصل الذى يمتاز بكثرة الرياض والأزهار والثمار والرياض فظفر فصـــل الربيع بحظ وافر ونصيب كبير من حبهم وعنايتهم فوصفوا رياضه وأزهاره وأغصانه وطيوره وماءه حتى فى مدائحهم ، فيقول أبـــو الحسين الغويرى وهو يمدح الصاحب ابن عباد ويدعوه أن يقيم الرســم فى صبيحة النيروز وتناول الخمر ويصف الربيع والأزهار والأغصان وهديل الحمام :

أيهــا الصـــاحب الربــيع تجلى فــى رياض تحار فيها العقول
نــرجس ناضــر وأحمــر ورد وشـــقيق يزيـــنه التحكـــيل
وغصون تجر أذيـــال نـــور فى حواشـــى جداول وتميــل
للزرازير فى خلال الأزاهيـــــــر صفير وللحمـــام هديــل
فـــأقم رســمنا صــبيحة نــيرو ز به ربع أنسنا مأهـــــول
بكؤوس مملوءة من مـــــدام أنت لمــــن حساها عذول [١]

ويقول أبو محمد الخازن فى الربيع : –

طلع الربيع فقال للأرض اشكرى نعــم الســماء وابدئى وأعيدى

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ٣ صـ ١٦٢ .

فغـدت حدائقها تواصل شكرها   بلســان كـل مطـوق غـريد
روض إذا نشرت طرائف وشيه   طويـت لهـا أبـراد آل يزيد
ريـان لـم يعـثر نسيم صبابتى   فـى ظلهـا إلا بـورد خـدود
واعتل نرجسه فعادته الصبـا   أحسن بنظرة عائد ومعـود [١]

فالخـازن وصف الربيع كما وصفه الغويرى ولكنه زاد عليه حينما صور الربيع على هيئة إنسان يطلع على الأرض فيطلب منها أن تشـكر نعم الله وتثنى عليه فإذ بالحدائق تستجيب لطلبه فتواصل شـكرها بألسـنة الطـيور المغـردة ، فالخازن أسبغ على الكائنات الصـامتة مـن ذاتـه حسـا وحركة فإذا بها تحس وتتحرك وتتكلم وتـتجاوب معـه وتستجيب لندائه كما صور النرجس الغض عليلا وحينما أبصرته الصبا أشفقت عليه وقامت بزيارته .

وكمـا وصـف الشـعراء البويهـيون الرياض وأزهاره فى معـرض المدح وصفوه مستقلا بذاته حتى بدا وصف الربيع غرضاً مسـتقلا قائمـا بذاته وأصبح غرضا رئيسيا من أغراض الشعر فى الأدب البويهى يقول التنوخى يصف الرياض [٢]:

وريـاض حاكـت لهـن الثريا   حلـلا كـان غـزلها للـرعود
نـثر الغيـث در دمـع علـيها   فتحلـت بمـثل در العقـود

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبى جـ ١٥٩ عائد : من عاد المريض إذا زاره .
(٢) اليتـيمة جـ ٣ صـ ٢٨٠ ، الصدغ : ما بين العين والأذن وهما صدغان ويقصد : الشعر المتدلى على هذا الموضع .

أقحوان معانق لشقيق   كثغور تعض ورد الخدود
وعيون من نرجس تتراءى   كعيون موصولة التسهيد
وكأن الشقيق حين تبدى   ظلمة الصدغ فى خدود الغيد
وكأن الندى عليها دموع   فى جفون مفجوعة بفقيد

وهناك أشعار كثيرة فى وصف الرياض والأزهار والربيع معظمها رائعة وبديعة [١].

وإذا كان شعراء العهد البويهى قد أغرموا بالرياض وافتتنوا فى وصفها وإظهار روعتها وأضافوا على وصفها من حسهم وذاتهم ومشاعرهم فإنهم أيضا قد فتنوا بالمياه الجارية وتفننوا فى وصفها وتصويرها فقد أحب الشعراء المياه وخريرها وسحرتهم الينابيع يتفجر ماؤها وتنحدر فوق سفوح الجبال ولها وقع ورنين يحلو سماعه ، وأعجبوا بالأنهار والجداول تنساب ماؤها فى رفق وهدوء فتتكسر على صفحته أشعة الشمس ونور القمر ، أو تضربه الرياح فتحدث أمواجاً تتكسر كأنها السيوف اللامعة بين أثناء الدروع .

وفتنة الشعراء فى هذا العهد بالماء الجارى والأنهار وخريرها شيىء طبيعى مألوف عندهم حيث الطبيعة التى يعيشون فيها فتكثر المياه والأنهار والأشجار والنخيل والبساتين والينابيع ويرون كل ذلك ماثلا أمام عيونهم ويعيشون حوليه لذا برعوا فى وصفها وتفننوا فى

---

(١) انظر اليتيمة جـ ٣ فى مواضع متعددة.

تصــويرها حيــث انعكست مظاهر الطبيعة عليهم بجمالها وحسنها وروعــتها فجادت مخيلتهم بهذا الشعر الرائع والجميل الذى يصف الطبيعة ويصور جمالها وروعتها ، من ذلك قول القاضى الجرجانى يصف موضعا له (١) .

كــأن خريــر الماء فى جنباتها   رعــود تلقــت مزنة تستريعها
إذا ضربتها الريح وانبسطت لها   ملاءة بدر فصلتها وشيعها (٢)
رأيــت ســيوفا بيــن أثناء أدرع   مذهــبة يغشــى العيون لميعها
فمن صنعة البدر المنير نصولها   ومن نسج أنفاس الرياح دروعها

كذلك تأثر شعراء العهد البويهى بما فى بيتهم من أنهار كنهر دجلـــة والأبلـــة ومعقل والمسرقان هذه الأنهار التى أحبوها وعاشوا حولها وشاهدوا جمالها وما يحدث فيها من مد وجذر وما يسير فوق مياهها من سفن وما يحيط بها من حدائق وبساتين وقصور وما يقام علــيها مــن قناطر وسدود ، وكان وصفهم لها نتاج حبهم لمظاهر طبــيعة بلادهــم هذا الحب العميق الذى ملأ قلوبهم واستحوذ على عقولهم وإعجابهم فكان هذا الشعر الرائع الذى جادت به مخيلتهم فى وصــف أنهــار طبيعتهم ، وكان هذا الجمع من شعراء العهد الذين وصفوا هذه النهار وصفاً رائعاً يدل على حب ملك قلوبهم واستحوذ

(١) صـــ ٢٤٨ جـــ ٣ اليتيمة للثعالبى .

(٢) المـــلاءة : ثوب يلبس على الفخذ . والوشيع : ما يوضع حول الحديقة من شوك ونحوه ليمنع الداخلين. وفصلتها : جعلتها فصولا وقطعا .

علـــى عقولهم أمثال : أبو القاسم التنوخي وأبو الحسن السلامى وأبو هلال العسكرى ، والسرى الرفاء وغيرهم من شعراء العهد البويهى الذيـــن عاشوا وسط هذه الطبيعة والأنهار فنظموا فيها أشعارهم التى تجلت فيها شخصيتهم الإقليمية بصورة واضحة كما تجلى فيها حبهم العميق لمظاهر هذه الطبيعة التى تعلقوا بها وأغرموا بحبها وعشقها، ومن ذلك قول التنوخي [١]:

أحبـــب إلـــى بـــنهر معقل الذى ... فـــيه لقلـــبى من همومى معقل
عـــذب إذا مـــا عـــب فيه ناهل ... فكأنـــه فـــى ريق حب ينهل[٢]
متسلســـل وكأنــــه لصـــــفائه ... دمـــع بخـــدى كاعـــب يتسلسل
وإذا الـــرياح جريـــن فوق متونه ... فكأنـــه درع علاهـــا صـــيقل
وكأنهـــا يـــا قوتـــة أو أعيـــن ... زرق تلائـــم بيـــنها وتواصـــل
وكـــان دجلة إذ يغطمط موجها ... ملـــك يعظـــم خـــيفة ويبجل[٣]
عـــذب فمـــا تـــدرى أماء ماؤها ... عند المذاقة أو رحيق سلسل[٤]
ولهـــا بمـــد بعـــد جـــزر ذاهب ... جيشـــان يدبـــر ذا وهـــذا يقبل
وإذا نظـــرت إلـــى الأبلة خلتها ... مـــن جنة الفردوس حين تخيل
كـــم منزل فى نهرها آل السرو ... ر بأنـــه فـــى غـــيره لا ينزل

---

(١) يتيمة الدهر جـ ٢ صـ ١١٠ .
(٢) الحب : المحب والمحبوب .
(٣) يغطمط : تعظم أمواجه .
(٤) الرحيق : الخمر.

وكأنمـــا تلـــك القصور عرائس ... والـــروض حلى فيه خود ترفل
غنـــت قـــيان الطير فى أرجائها ... هـــزجا يقـــل له الثقيل الأول(١)
وتعانقـــت تلك الغصون فأذكرت ... يـــوم الـــوداع وعيرهم يترحل
ربـــع الربـــيع بـــه فحاكت كفه ... حلـــلاً بها عقد الهموم تحلل(٢)
فمدبـــــج وموشـــــح ومدنــــــر ... ومعمـــد ومحـــبر ومهلــــل(٣)
فتخال ذا عينـــــا وذا ثغرا وذا ... . خدا يعضعض مرة ويقبـــل

وهـــناك الكثـــير من الشعر الذى يصف فيه شعراء العهد الـــبويهى الأنهار وجمالها وما فيها وما عليها وما حولها فوصفوا السفن والأسماك والشباك التى تستخدم فى صيدها ووصفوا السدود الـــتى تقـــام فى النهار كما وصفوا الرياح والحر والبرد والسحب والأمطار والثلوج والبرق والرعد والوحل الذى نشأ عن المطر ، كمـــا وصـــفوا الفاكهة والثمار : كالنارنج والأترج والرمان والتين والـــتفاح والمشـــمش والعنـــب والتمر والخوخ والبطيخ والباقلاء والباذنجان وغيرها من الفواكه والثمار والأشجار التى وجدت فى طبيعتهم (٤).

---

(١) الهزج والثقيل : نوعان من الألحان .

(٢) ربع به : أقام به .

(٣) المدبج : المزين بالديباج . الموشى : المطرز . والمدنر : المشرق كالدينار . والمحبر: الموشى . والمهلل : الثوب الذى رسمت فيه صور على شكل الهلال.

(٤) انظر اليتيمة جـــ ٢ ، ٣ وديوان المعانى جـــ ٢ وديوان مهيار الديلمى جـــ ١ .

كذلــك وصف الشعراء الطبيعة الحية على اختلاف مظاهرها وألوانها وإن لم تحظ بنفس القدر من الاهتمام والكثرة الذى حظى به شعر الطبيعة الصامتة ، فبجانب عدم اهتمام شعراء العهد بهذا النوع مــن شــعر الطبــيعة وبجانــب عدم تفننهم فيه كتفننهم فى الطبيعة الصــامتة وفضـــلا عــن عــدم ظهور آثار الطبيعة الحية فى شعر البويهيين كما ظهرت آثارها فى العصور السابقة إلا أنهم قد عرفوا شعر الطبيعة الحية : فوصفوا الخيل والجمل والناقة والذئب والأسد وغــيرها علــى سبيل التقليد والمحاكاة للشعراء السابقين وجاء ذلك قلــيلا فــى أشــعار العهد البويهى باستثناء شاعرين كبيرين هما : الشريف الرضى ومهيار الديلمى الذين أكثرا فى شعرهما من وصف الطبيعة الحية وهما الشاعران الكبيران اللذان حافظا على نهج وشكل وتقاليد الشعر العربى القديم .

وربما يعلل لذلك أن شعراء العهد البويهى عاشوا حياة مترفة ومدنــية جارفــة كمــا عاشــوا حياة مستقرة متحضرة بين الأنهار والقصــور وفــى المدن فلم يعرفوا الحيوان كما عرفه السابقون ولم يصــحبوه فــى رحلــتهم ولم يستخدموه فى حياتهم مثلما استخدمه السابقون بل لقد شغلتهم حياتهم المتحضرة والمعقدة عن هذا الجانب من جوانب الطبيعة الحية .

ولكنــنا وجدنا شعراء هذا العهد أحيانا يصفون الطبيعة الحية الــتى عرفــتها بيئتهم وشاهدوها : فوصفوا الفيل والبرذون والحمام

والبلبل والزرزور والببغاء والخطاف والقبجة والعصفور والقمرى والدجاج والبزاة وغيرها من الحيوان والطير .

كذلك عرف الأدب البويهى غرض الرثاء بجميع ألوانه من رثاء اجتماعي : كرثاء الأبناء والآباء والأزواج والأقارب والأصدقاء ورثاء سياسي : كرثاء الملوك والخلفاء والحكام والوزراء والقضاة وكبار رجال الدولة ، كما عرف رثاء الحيوان والطير ومن ذلك قول أبي القاسم بن أبي العلاء في رثاء برذون أبي عيسى[١] :

عزاء وإن كان المصاب جليلا ... وصبرا وإن لم يغن عنك فتيلا
وخفض أبا عيسى عليك ولا تفض ... دموعاً وإن كان البكاء جميلا
وراجع حجاك الثبت لا يغلب الأسى ... أساك وإن حملت منه ثقيلا

كذلك كان هناك من شعراء الدولة البويهية من نظم شعراً فى الفخر والحماسة والحرب والغزل على نطاق كبير وكان الشريف الرضى هو أكبر الشعراء وأكثرهم شعراً فى هذه الميادين حيث راح الشاعر وعلى نطاق واسع وبجرأة شديدة ينظم أشعاراً فى الفخر بعروبيته وبإسلامه وبماضى العرب المجيد وأمجادهم وعظمتهم وأفضالهم ومآثرهم على الفرس وراح الشاعر يملأ ديوانه بهذه الأغراض الشعرية كأنه عربى بدوى مسلم يخوض المعارك فى صحراء نجد وجبال الحجاز وكأنه ليس حضرياً يعيش فى بغداد

---

(١) يتيمة الدهر جـ٣ صـ ٥٧ .

ومــاذلك إلا أثــر مــن آثار ثقافته العربية الأصيلة وتمسكه بمبادئ عروبته وبتقاليد وعادات العرب الأقدمين والمسلمين الأوائل .

نظــم الشــاعر شعره مقلداً أساليب القدماء ومحتذيا شعرهم وكأنــه كــان بمثابة البركان الثائر الذى ثار على ما حوله من حياة تمــردت على الماضى التليد وكأنها ترفض هذا النهج العربى القديم فى مختلف مناحيه .

فكان الشريف الرضى – وقريب منه المهلبى – يمثل بمفرده ظاهــرة شــعرية قائمــة بذاتها وسط هذا البحر المتلاطم من أشعار الدولة البويهية سواء ما كان منها شعرا رسميا أو شعراً شعبيا حيث راح الشريف يعبر عن آمال وطموحات الأمة العربية التى أصبحت مغلوبــة علــى أمرها وخضعت لعناصر أخرى كالفرس والأتراك وغــيرهما بعدما كانت لها السبق والملك والزعامة على سائر الأمم وبعد أن كان لها التقدم والتحضر فتخلفت وتدهورت واضمحلت فى مضــمار الحياة حتى سبقتها أمم أخرى كانت أقل منها شأنا ومكانة وحضارة .

فهــذا الكــم الضخم من شعر الشريف الرضى والذى يظهر مــاثلا فــى ديوانــه معظمه فى الفخر والحماسة والحرب والغزل والرثاء وجاء محاكيا نظم القدماء حتى فى غزلياته فنراه – وقد نشأ بالعراق – يحب ويعشق الحجازيات والنجديات ويهيم فيهن بمشاعر فياضة ويأتى بأشعار رقيقة عذبة عفيفة تعبر عن نفس أضنتها الأيام

وأزعجـتها الأحلام التى كان يحلم بها فى عالم الخيال من أن تعود للعرب دولتهم وصولتهم وقوتهم وأمجادهم .

وقـد يكـون للشاعر عذره فهو الحسيب النسيب يعيش فى عصـر اختلـت موازينه وانقلبت معاييره فقد وصل فيه إلى أعلى المناصب في الدولة من هو أقل منه شأنا ونسباً وحسباً وكفاءة .

فمن شعره فى الفخر :

لغـير العـلا مـنى القلا والتجنب ... ولولا العلا ما كنت فى الحب أرغب

إذا الله لـم تعـذرك فـيما ترومه ... فمـا الـناس إلا عـاذل ومؤنب

ملكـت بحلمـى فرصة مااسترقها ... مـن الدهر مفتول الذراعين أغلب

فـإن تـك سـنى ما تطاول باعها ... فلـى من وراء المجد قلب مذرب

فحسـبى أنـى فى الأعادى مبغض ... وأنـى إلـى غـر المعالى محبب

وللحلـم أوقـات وللجهـل مـثلها ... ولكـن أيـامى إلـى الحلم أقرب

يصـول علـى الجـاهلون وأعتلى ... ويعجـم فـى القـائلون وأعرب

وأعـرض عـن كأس النديم كأنها ... ومـيض غمام غائر المزن خلب

وقـور فـلا الألحان تأسر عزمتى ... ولا تمكر الصهباء بى حين أشرب

ولا اعـرف الفحشـاء إلا بوصفها ... ولا أنطـق العوراء والقلب مغضب

لسانى حصاة يقرع الجهل بالحجـا ... إذا نال منـى العاضـه المتوثب

ومن غزله : قوله : -

ياظبـية البان ترعى فى خمائله ... ليهنك اليوم أن القلب مرعاك[1]

([1]) البان : شجر صلب معتدل طيب الرائحة. الخمائل : الشجر الكثيف والأغصان الملتفة.

المـــاء عـــندك مـــبذول لشاربه ... وليس يرويك إلا مدمعي الباكي[١]
هبــت لنا من رياح الغور رائحة ... بعــد الـــرقاد عرفناها برياك[٢]
ثــم انثنيــنا إذا مـــا هزنا طرب ... علـــى الـــرحال تعللنا بذكراك
سهم أصاب وراميه بـــذي سلـــم ... من بالعراق لقــد أبعدت مرماك[٣]
حكت لحاظك ما في الريم من ملح ... يوم اللقاء ، وكان الفضل للحاكي[٤]
كـــأن طرفك يوم الجزع يخبرنا ... بمـــا طوى عنك من أسماء قتلاك[٥]
أنـــت النعـــيم لقلبي والعذاب له ... فمـــا أمـــرك فـــي قلبي وأحلاك
عندي رسائل شوق لست أذكرها ... لولا الرقيب لقد بلغتهـــا فاك

ومـــن غزله التقليدي : في مقدمة قصيدة مدح بها الملك بهاء الدولة البويهي :

ألهـــاك عـــنا ربَّـــةَ الـــبرقع ... مـــرَّ الثلاثيـــن إلـــى الأربـــع[٦]
أنـــت أعنـــت الشيب في مفرقي ... مـــع الليـــالي ، فصلي أو دعي[٧]
يـــا حاجـــة القلـــب : ألم ترحمي ... جـــناية الدمـــع علـــى مدمعي

---

(١) المدمع : مجرى الدمع في العين .
(٢) الغور : البلاد المنخفضة عن نجد والحجاز وهي تهامة . ورائحة : أي ريح ممسية . والريا: الرائحة الطيبة .
(٣) ذو سلم : موضع قرب مكة .
(٤) الريم : الظبي الخالص البياض .
(٥) الجزع : موضع قرب الطائف .
(٦) أي من العمر فيكون عمره يومئذ أربع وثلاثون سنة .
(٧) المفرق : وسط الرأس .

لولا ضلالات الهوى لم يكن ... عنان قلبى لك بالأطوع[1]
كيف طوى دارك ذو صبوة ... عهدى به يطرب للمربع[2]
كان يرى ناظره سبة ... أن مر بالدار ولم يدمع [3]
ياحبذا منك خيال سرى ... فدله الشوق على مضجعى
بات يعاطينى جنى ظلمه ... وبت ظمآن ولم أنقع [4] ..

وليس فشل الشريف الرضى السياسى هو الذى حمله على أن يقول شعراً فى الحماسة والفخر والحرب وعلى أن يتغنى ببلاد العرب موطن آبائه الأولين كما يزعم البعض ولكن غيرة الشاعر على أهله وقومه العرب وحبه الشديد لهم بعد أن رآهم فى ذلة بعد عزة وفى ضعف بعد قوة وفى تأخر بعد تقدم وفى رعية مهضومة مقهورة بعد أن كانت لهم الزعامة والقيادة على سائر الأمم فرساً كانوا أم تركا ، فكان هذا هو الدافع وراء هذا النظم من الشعر الذى راح يتغنى به الشاعر العربى الأصيل والمسلم المحافظ على إسلامه وعروبته .

وقد أثر الشريف الرضى بمنهجه هذا فى تلاميذه الذين تتلمذوا على يديه فهذا الشاعر مهيار الديلمى والذى كان تلميذا للشريف الرضى كان مقلداً له فى مذهبه الفنى تقليداً كبيراً وتأثر به فى شعره

---

(١) العنان : سير اللجام أى لولا حبى لك لم يكن قلبى طوعك .

(٢) طوى دارك : مر بها وحاذاها . يطرب هنا : بمعنى يحزن

(٣) السبة : العار . والناظر : العين ..

(٤) الظلم : تلألؤ أسنان الثغر ، وجناه ، ريقه . ولم أنقع لم أرو ظمئ .

أغراضا وأسلوبا ونهجا .

وإذا كانــت الحــياة السياسية ومظاهرها قد أثرت فى الأدب الــبويهى تأثــيراً مباشاً وكبيراً من حيث الأغراض والأسلوب فإن الحــياة الإجتماعــية كـــان لها تأثير كبير أيضا فى الأدب البويهى والشــعر منه على وجه خاص فالأدب والشعر كما هو صدى للحياة السياسية فإنه أيضا صدى للحياة الإجتماعية وتعبير عنها وعما يدور فـــى المجـــتمع الـــذى يعيش فيه ، فإن حياة اللهو والترف والمجون والزهد والغنى والفقر والأعياد والاحتفالات والتقاليد والعادات وغير ذلـــك من مظاهر الحياة الإجتماعية تؤثر فى الأدب والشعر وتنعكس آثارهـــا عليه ويروح الأدب مصوراً كل ما يدو فى مجتمعه ويسجل هذه المظاهر الإجتماعية فى المجتمع أدبا وشعراً .

فحــياة اللهـــو والمجون والترف والنعيم ينشأ عنها أغراض شــعرية معينة تبعاً لهذه الحياة : مثل : شعر الغزل ووصف الخمر ومجـــالس الشــراب ومـــا يـــدور فـــيها من فسق ومجون ووصف الراقصـــات والمغنيين و المغنـــيات ووصـــف الســـقاة والساقيات والفكاهات والألغاز وغير ذلك من مظاهر هذا الجانب .

وقد اندفع شعراء وأدباء الدولة البويهية وراء هذا التيار الماجن الـــذى ســـاد المجتمع البويهى واستجابوا لرغباتهم ورغبات هذه الطبقة الماجـــنة فـــى العهـــد البويهى خاصة : الملوك والوزراء الذين كانوا يحضرون هذه المجالس الماجنة خاصة مجالس الخمر والشراب .

وراح الشعراء يصفون الخمر ويمعنون فى وصفها مجاهرين بـــالدعوة إلى شربها متجردين من كل أخلاق ودين ، بل ربما بالغ بعضـــهم فى وصف الخمر واعتبرها مقدسة وانحدر بوصفه لها إلى الإلحاد والزندقة ، فالسلامى يقول فى وصفها(١) :

إشــربا واســقيا فتى يصحب الأيا م نفســا كثـــيرة الأوطـــار
والـــنفوس الكـــبار تـــانف للســا دة أن يشـــربوا بغـــير الكـــبار
فى جوار الصبا نحــل بيوتـــا عمرت بالغصون والأقمــار
ونصلـــى علـــى آذان الطنابيـــر ونصغى لنغمـــة الأوطـــار
بين قـــوم إمامهم ساجـــد للكـــأس أو راكـــع على المزمار

ويقول ابن الحجاج (٢):

يـــا خليلى قد عطشت وفى الخمرة رى للحـــائم العطشــــان
فاســقيانى محض التى نطق الوحـــى بـــتحريمها مـــن القـــرآن
والتى ليس للتأويـــل فيهـــا مذهـــب غير طاعة الشيطان

إنهـــا وثنية الفرس التى قد رفعت رأسها ومشت على قدميها فـــى هـــذا العصر بعد أن كانت تتمهل وتحاول أن تنهض فلا يسعها النهوض أيام كان للعرب دولة وسلطان فى هذه الديار ... ويبدو أن مفهـــوم الديـــن عـــندهم قـــد استحال وتغير وتبدل بما شاب حياتهم الروحية من نزعات وأهواء هى وليدة التراث الفارسى الذى حى من

(١) يتيمة الدهر حـــ ٢ صـــ ٤١٠.
(٢) يتيمة الدهر جـــ ٢ صـــ ٣٤٢.

جديد وصدى للحياة الاجتماعية التى خضعوا لها حينذاك ".

أما الغزل : فقد عرف العهد البويهى الغزل بألوانه الأربعة : الغزل التقليدى والغزل العفيف والغزل الصريح والغزل بالمذكر .

وقد عرف الأدب العربى منذ العصر الجاهلى الأنواع الثلاثة الأولى حيث شاع الغزل التقليدى فى العصر الجاهلى والغزل العفيف فـــى العصــــر الإســــلامى وشاع الغزل العذرى فى العصر الأموى بجانـــب وجـــود الألوان الأخرى فى مختلف العصور الأدبية ، أما الغزل بالمذكر فقد كان من الأغراض التى جدت ونبتت فى العصر العباســـى الأول نتـــيجة ميل البعض إلى الغلمان بين طائفة من أبناء المجـــتمع العباســـى كـــأبى نواس وعصابته من المجان وهذه العادة الســـيئة جـــاءت مـــن المشرق مع جيوش العباسيين التى جاءت من خراســـان فهى عادة فارسية انتشرت فى العصر العباسى عن طريق الفـــرس وساعد على انتشارها تجارة الرقيق من الغلمان وكثرة دور اللهـــو ومجالس الخمر والشراب ومع وجود هذه الظاهرة وانتشارها فـــى الدولة العباسية فقد ظلت هذه العادة محصورة طوال العصور الـــتى كانت فيها السيادة للعنصر العربى حيث طغت الروح العربية وسيطرت حينئذ على المجتمع مهما حوى من خلاعة ومجون ، وأما حيـــنما ســـيطر العنصــــر الفارسى أيام دولة بنى بويه انتشرت هذه الظاهـــرة انتشـــاراً لـــم يسبق له مثيل وأصبحت – عادة اللواط – وكأنهـــا ظاهرة عامة فى المجتمع البويهى وتناولتها بالقول والدراسة

والبحث مختلف الطبقات الأدبية والعلمية والفقهية : الأول بالنظم والقول والثانية بالقول فيها من الناحية الفقهية حيث اختلفت آراء الفقهاء اختلافاً ظاهراً من بين قائل إنه مثل الزنا وآخرون فرقوا بين اللواط في الغلام المملوك وغير المملوك والأكثرون على أنه يوجب التعزير من القاضي "[1] .

على كل فقد شاع الغزل بالغلمان في الدولة البويهية الفارسية الحكم وانتشر انتشاراً كبيراً حتى أصبح ما قيل في الغزل بالغلمان والتوجع من هواهم والشكوى من حبهم يساوي ما نظم في التوجع والشكوى من هوى النساء .

وأصبح القول في الغزل بالغلمان ظاهرة عامة مشتركة بين الشعراء جميعا وانحرف الأدباء وسط هذا التيار فأكثروا النظم في الغزل بالمذكر بل إننا وجدنا بعض شعراء الدولة البويهية يقصرون غزلهم على الغزل بالغلمان مثل :الشاعر السلامي والشاعر الخبز أرزي ، بل قد وجدنا أصحاب المناصب العالية في الدولة البويهية لا يتحرجون من التغزل بالغلمان وإظهار حبهم وعشقهم ، مثل : الصاحب والصابي والمهلبي وغيرهم من الملوك والوزراء : يقول الصاحب في غلام ألثغ السين :

وشادن قلت له ما اسمكا   فقال لي بالغنج عباث
فصرت من لثغته ألثغا   فقلت أين الكاث والطاث

(¹) صـ ٥٨ قصة الحضارة الفارسية والحضارة الإسلامية جـ ٢ صـ ١٣٤.

بـــل إن هذه الظاهرة شملت أيضاً القضاة والفقهاء والمحدثين حيـــث كانوا يشاركون أهل العصر بالميل إلى الغلمان والتغزل فيهم مـــثل القاضـــى التـــنوخى وابن خلاد والمفجع البصرى وغيرهم ، وأصـــبح حـــب الغلمـــان والتغزل فيهم من الأمور المألوفة التى لا يـــنكرها أحـــد من طبقات المجتمع البويهى بخلاف المجتمع العباسى فمـــع وجـــود هـــذه الظاهرة على يد عصابة المجان إلا أن المجتمع العباســـى كـــان يســـتنكر هذه العادة أشد الاستنكار أو يسخط على أصحابها أشد السخط وكانت من أشد صفات الهجاء فى عصرهم أما فـــى عصر الدولة البويهية فلا نجد شاعراً هجا شخصا بهذه الصفة الذميمة .

كذلـــك وجـــد الغزل بالجوارى وانتشر انتشاراً واسعاً نتيجة الكـــثرة الهائلـــة للجوارى التى ملئت بهن القصور والمحلات العامة والخاصـــة خاصة الجوارى الراقصات والمغنيات واللاتى كن على درجـــة كبـــيرة من الحسن والجمال والسحر والمهارة مما تسبب فى كـــثرة وجود الشعر فى الغزل بالجوارى والهيام بهن ، يقول الوزير المهلبى فى جارية له تسمى " تجنى" .

مـــرت فلـــم تثـــن طـــرفها تـــيها ... يحســـدها الغصـــن فـــى تثنيها

تلك "تجنى" التى جننـــت بهـــا ... أعاذنى الله مـــن تجنيهـــا

ويقول الشريف الرضى فى جارية سوداء أحبها وعشقها (١):

---

(١) ديوان الشريف الرضى جـــ ٢ صـــ ٧٥٥.

أحـــبك يـــالون الشـــباب لأنـــنى — رأيتكما فى القلب والعين توأما
ســـواد يـــود الـــبدر لو كان رقعة — بجلدتـــه أو شق فى وجهه فما
لـــبغض عندى الصبح ماكان مشرقا — وحبب عندى الليل ما كان مظلما
ســـكنت ســـواد القلب إذ كنت شبهه — فلم أدر من عز من القلب منكما
ومـــا كان سهم الطرف لولا سواده — ليـــبلغ حـــبات القلوب إذا رمى
إذا كنت تهوى الظبى ألمى فلا تعب — جنونى على الظبى الذى كله ألمى

وهكـــذا فقد شاع الغزل بالغلمان والجوارى فى العهد البويهى شـــيوعاً كبـــيراً وحل محل الغزل بالحرائر فضلاً عن وجود الأدب الخلـــيع الـــذى يتـــناول العورات والسوءات بأقبح الألفاظ وأفحشها وأصـــرحها وشمل هذا الجو الشعراء والشاعرات معا حيث لم يكن النســـاء بمعـــزل عن هذه الظاهرة ، " فقد كان المجتمع البويهى فى أخلاقـــه وذوقه وتقاليده بدعاً بين المجتمعات فكان أدبه الذى نتج عن ذلك بدعاً بين الآداب فى ألفاظه وأساليبه ومعانيه " وكل ذلك مسطر بوضـــوح فـــى شعر : ابن الحجاج وابن سكرة والصاحب بن عباد والصـــابى والخوارزمـــى والأحنف العكبرى والهمزانى وأبى دلف الخزرجى وأبى الحسن الجوهرى وغيرهم من شعراء العصر .

وقـــد كان وراء هذه النزعة الماجنة فى العهد البويهى أسباب كثـــيرة أدت إليها وساعدت على انتشارها بهذه الكيفية الملفتة للنظر والـــتى لم نجد لها مثيلا أو شبيها فى أى عصر من العصور الأدبية حتى فى أكثرها مجونا وفسقا وأهمها ضعف الوازع الدينى ، وسوء

الحالة الاقتصادية وشيوع الروح الفارسية وعادات الفرس وتقاليدهم ومــآثرهم فضلا عن كثرة الحروب الداخلية والخارجية والتى ظلت متواصلة طوال عهد البويهيين .

ومــا يسود المجتمع من تعارف وتآلف وصداقات واتصالات ينشــأ عنه أدب الإخوانيات والرسائل الإخوانية التى تتضمن الشكر والعتاب والتهنئة والشكوى وغيرها .

فحياة الفقر والضنك فى المجتمع ينشأ عنها أدب الشكوى من العيش وتصوير حياة البؤس والشقاء والحرمان وما إليها .

والمجــتمع الــبويهى وقــد ظهــرت فــيه كل هذه المظاهر الاجتماعية ، والمتناقضة وجدنا أثر ذلك بوضوح فى الأدب البويهى والشــعر الــبويهى وظهرت فيه كل الأغراض والموضوعات التى ذكرناها وكانت انعكاساً لهذه الحياة الاجتماعية :

فوجدنا شعر الغزل ووصف الخمر ومجالسها وما يدور فيها ووصــف المغنيــن والمغنــيات والراقصين والراقصات ، ووجدنا الإخوانيات شعراً وأدباً وقد ازدهرت فى هذا العصر ازدهاراً كبيراً وكــان سبب ازدهارها يتصل بأخلاق الطبقة العليا ونزعاتها اتصالاً وثــيقاً والتى انتقلت عدواها إلى مختلف طبقات الشعب البويهى التى جعلت علاقة الرئيس بالمرؤس والشريف بالمشروف والغنى بالفقير مبنــية علــى المجاملــة والملــق والنفاق وقائمة على الود الكاذب والإخــلاص المــزيف والاحترام المتكلف وما إلى ذلك من الأخلاق التى تسود المجتمعات المنحلة فى كل زمان ومكان ".

فالمجـتمع الـبويهى وجدت فيه صداقات ولكنها فى معظمها كانـت صـداقات بعيدة كل البعد عن الصدق والإخلاص وندر فى المجتمع البويهى الوفاء والألفة والصداقة والمودة الخالصة وشاع فيه الغـدر والجفـاء والقطـيعة والمكر والدهاء وغير ذلك ، فقد كان المجـتمع البويهى يندر فيه الصديق المخلص " وإن الصداقة والألفة والأخـوة والمـودة والرعاية والمحافظة قد نبذت نبذاً أو رفضت رفضـا ووطئـت بـالأقدام ولويـت دونهـا الشفاة وصرفت عنها الرغبات".

ومع ذلك فقد ازدهرت الإخوانيات فى الأدب البويهى ازدهاراً كبـيراً وعنى الأدباء والشعراء عناية فائقة بالإخوانيات فأكثروا من المراسـلات الإخوانية شعراً ونثراً إلى حد الإسراف والمغالاة حتى إننا وجدنا من الأدباء من اقتصر فى كتاباته على الرسائل الإخوانية مثل أبى بكر الخوارزمى .

وقـد وجـه هـؤلاء الأدباء والشعراء رسائلهم إلى الملوك والأمـراء والوزراء والقضاة والعلماء والأدباء والأصدقاء والتلاميذ والأهـل والأقـارب وغـيرهم فى مختلف المناسبات وعلى مختلف الأغـراض : كالتهنـئة والعـتاب ، والـتعزية والشكر والاعتذار والاستعطاف والإهداء والاستهداء والشكوى والتوجع وغيرها .

وقد كان هؤلاء الأدباء والشعراء مرغمين إلى نظمها مجبرين إلـى إرسـالها ولـم تنبع منهم عن صدق وعاطفة ولم تصدر عنهم

تعبيراً حقيقياً لمشاعرهم وأحاسيسهم وإنما كانت بتأثير الحالة الاجتماعية التى سادت المجتمع البويهى من تملق ونفاق وخداع وصداقات زائفة .

فقد رأينا الأدباء الذين يهنئون شخصاً لا تربطهم به علاقة صداقة حقيقة ووجدنا الشعراء الذين يعزون أناسا بحادثة دون أن تؤثر فيهم أو تبعث فى قلوبهم الحسرة والحزن ولا تثير فى عيونهم البكاء والدموع ، ووجدنا الأديب أو الشاعر الذى يرسل رسالة استعطاف إلى شخص كبير ويثنى عليه فيها ثناء عظيما وهو لا يضمر له إلا البغض والسخرية ، ووجدنا منهم من يرسل الرسائل التى تحمل الشوق والحب والإخلاص وهو لا يضمر فى قلبه إلا الغدر والكراهية ولا يحب أن ترى عينيه هذا الشخص الذى راسله ، لذا خلت رسائلهم من الصدق الواقعى وبعدت عن المشاعر والأحاسيس والعواطف الصادقة .

وتبعا لذلك وبناء على هذه الأخلاق الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع البويهى : من نفاق وخداع وتملق وغلو فى المجاملة جاءت معانيهم مملوءة بالغلو حتى أحالها هذا الغلو إلى معان مبتذلة مضحكة ، وجاءت ألفاظهم منمقة قبيحة ولم تعبر عن مشاعرهم وعواطفهم لذا رأيناهم يغيرون على معانى السابقين وألفاظهم فينتحلونها .

ومن ذلك قول الصاحب بن عباد يرسل رسالة إلى عبد

الرحمن الشيرازى وقد شكا إليه علة النقرس [١]:

عـنانى مـن الهـم مـا قد عنانى فأعطيـت صرف الليالى عنانى
ألفـت الدمـوع وعفـت الهجـو ع فعيـناى عيـنان نضـاختان
لسقم ألـح علـى سيـد به قد غـفرت ذنوب الزمان

فـنجد إلـى أى حـد بلغ الشاعر فى شعره من تكلف وعناء ومشقة وسذاجة وضعف فى المعانى والأسلوب .

ويكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمذانى فى الشوق فيقول[٢] :

" يعـز على – أطال الله بقاء الشيخ الرئيس – أن ينوب فى خدمـته قلمـى عن قدمى ، ويسعد برؤيته رسولى دون وصولى ، ويـرد مشرعة الأنس به كتابى قبل ركابى ولكن ما الحيلة والعوائق جمة :

وعلـى أن أسعـى وليـ س علـى إدراك النجـاح

وقـد حضرت داره ، وقبلت جداره ، وما بى حب الحيطان ولكـن شـوقا إلى السكان ، وحين عدت العوادى عنه أمليت ضمير الشـوق على لسان القلم معتذراً إلى الشيخ على الحقيقة عن تقصير وقع وفتور فى الخدمة عرض ولكنى أقول :

إن يكن تركى لقصـدك ذنبـا فكفـى أن لا أراك عقابـا

(١) يتيمة الدهر جـ ٢ صـ ١٨٣.

(٢) وسائل بديع الزمان ص ـ ١٠٣.

فـــإلى أى حـــد كـــان الأدباء والشعراء فى العصر البويهى يـــتكلفون عواطفهم ويغالون فى معانيهم التى جاءت مصطنعة مبتذلة بعـــيدة عـــن المشـــاعر والأحاسيس الجياشة ولكنهم إنما فعلوا ذلك اســـتجابة لظـــروف الحياة الإجتماعية فى الدولة البويهية وخضوعاً لمؤثـــراتها وبواعثها التى دفعتهم دفعا إلى مثل ذلك وأرغمتهم عليه إرغاما .

وقد نشأ عن حياة الفقر والضنك التى سادت المجتمع البويهى لون جديد من ألوان الأدب (وهو أدب الحرمان) الذى يصور حياة الـــبؤس والشقاء وحياة الفقراء البائسين والصعاليك الذين كثروا فى الدولة البويهية وهو لون جديد لم نجد له مثيلا فى غير هذا المجتمع البويهى ونشأ نتيجة لشيوع ظاهرة التسول التى انتشرت فى المجتمع بجانـــب أبـــناء الشوارع والأفاقين والفقر الشديد الذى ساد المجتمع البويهى .

فوجدنـــا أدبـــا وشـــعراً يصوران حياة الصعاليك ومعيشتهم وآلامهـــم وبؤســـهم وما هم عليه من بؤس وحرمان ، من ذلك قول الأحنف العكبرى :

تـــرى العقـــيان كالذهـــب المصفى ... تركـــب فـــوق أثفـــار الدواب
وكيسى منه خلـــــو مثل كفـــــــى ... أما هذا من العجـــــب العجاب

ويقول أبو دلف الخزرجى يصف حال البؤساء والمكدين فى

قصيدة طويلة نذكر منها :

جفـــــون دمعهـــــا يجـــــرى ‏ لطـــول الصـــد والهجـــر

وقلـــــب تـــــرك الوجـــــ ‏ ـــد بـــه جمـــراً علـــى جمر

لقـــد ذقـــت الهـــــوى طعـــ ‏ ـمين من حلـــــو ومـــن مر

وكان الشاعران : الأحنف العكبرى وأبو دلف الخزرجى أكبر شاعرين صورا حياة الصعلكة والصعاليك فى الدولة البويهية.

علـــى أن شيوع ظاهرة التسول وأبناء الشوارع وحياة الفقر المتقع التى انتشرت فى المجتمع البويهى كانت الملهم الأكبر والدافع العظيم الذى ألهم بديع الزمان الهمزانى فى إنشاء مقاماته المشهورة والـــتى اتخذ منها موضوعاً خصباً لمقاماته ونبعا خصبا لها ، حيث تمثل المقامات هنا حياة البؤس والشقاء وتؤرخ لوجود ظاهرة نشأت فى العهد البويهى وهى ظاهرة التسول والصعلكة .

والمقامة : عبارة عن حكاية صغيرة قصيرة صيغت بأسلوب أدبـــى رفـــيع تدور حول رجل واحد بصير بالاحتيال لكسب الرزق الطفيف عن طريق التكدى.

وقد تطور فن المقامة منذ العصر الجاهلى حيث كانت عبارة عن مجتمع القبيلة ثم أخذت شكلا دينيا فى العصر الأموى ثم تطور معناها فأصبحت تقرن بالأدب والشعر وأخبار الوقائع القديمة ، وفى القـــرن الثالـــث الهجرى هبطت إلى مستوى الكدية والاستجداء بلغة

مختارة ثم تطورت وأخذت شكلها الحقيقى المتعارف عليه الآن على يدى بديع الزمان الهمزانى ثم الحريرى .

والقدماء يعترفون ويجمعون على أن بديع الزمان هو أول من فتح الباب لفن المقامة وأنه يعد أستاذاً لكل من تناول هذا الفن فى كتاباته من بعده ، ولم يشذ عن هذا الرأى إلا أبى إسحاق الحصرى صاحب كتاب " زهر الآداب" حيث قال إن بديع الزمان كان متأثراً بابن دريد الذى كان يسبقه زمناً وقد مر نموذج لفن المقامة سابقا لأديب من أدباء العهد البويهى وهو الأديب : البديع الهمزانى .

***

خصائص الأدب البويهى : -

الأدب فى العصر البويهى شأنه شأن أى أدب عربى نشا فى عهد دولة أخرى قد استقلت عن الدولة العباسية الأم حيث ورث أدب كـل دولة مستقلة خصائص وسمات الأدب العربى والشعر العربي القديـم فـى الألفاظ والأساليب والمعانى ، حيث اتسم الأدب العربى برقة الألفاظ وسهولة العبارة ووضوح المعانى والإبداع فى التصوير والروعة في الخيال واستنباط الجديد والدقيق من المعانى وغير ذلك من الخصائص الفنية التى عرفت للأدب العربى فى العصر العباسى الأول والـتى هى عرفت للأدب العربى فى العصر العباسى الأول والتى هى بمثابة خصائص عامة تشترك فيها كل الدويلات المستقلة فـى أدبها وشعرها بجانب وجود الشخصية الإقليمية التى تميز أدب كل إقليم ودويلة عن سائر الأقاليم والدويلات الأخرى .

١- والأدب الـبويهى - وكمـا عرفنا سابقا - كان يدور فى دائرتين : -

الدائرة الأولى : - أدب أرستقراطى رفيع . **والدائرة الثانية:** أدب شعبى عام ، حيث اختلف كل نوع من هذين النوعين من الأدب البويهى كل فى دائرته عن النوع الآخر من حيث الصياغة والمعانى . والنوع الأول من الأدب وهو الأدب الأرستقراطى فإنه كان يتميز فـى ناحيتيـن : التأنق الشديد فى الأسلوب ، والمبالغة المفرطة فى المعـانى ، أما التأنق فى الأسلوب فظهر فى استخدام الأدباء للسجع

والجـــناس والطباق وغيرها من المحسنات البديعية استخداماً مفرطاً وأسرفوا فى استخدامها أيما إسراف وبطريقة ملفتة للنظر قل أن نجد لها شبيها أو مثيلا من قبل ، صحيح أن القدماء من الأدباء والشعراء قد استخدموا فى أسلوبهم هذه المحسنات البديعية وأكثروا منها إلا أن أدبـــاء العهـــد الـــبويهى كـــانوا أكثر استخداما لها حيث بالغوا فى استخدامها وأمعنوا فى ذلك بطريقة غير مسبوقة، حيث وجدنا السجع يشـــمل جميع الرسائل ويعمها مصحوبا بالجناس والطباق فكان ذلك مبدأ ظهور الأسلوب المحلى بالسجع والبديع فى الأدب العربى على يـــد أبى الفضل محمد بن العميد حيث كان هذا الأديب أول من نحا هـــذا الـــنحو فى الأدب من الأدباء ثم تابعه بعد ذلك من اتخذوه لهم أســـتاذا وإمامـــاً أو حـــاكوه وقلدوه فى أسلوبه : كالصاحب والبديع والخوارزمى والصابى والثعالبى وغيرهم من أدباء العصر.

وراح أدباء العصر ينهجون هذا النهج فى أسلوبهم أدباً وشعراً واغـــرموا بهـــذا الأســـلوب المسجوع المصحوب بالجناس والطباق إغـــراماً شديداً والتزموه فى كل ما يكتبون ، خاصة أسلوب الرسائل الديوانـــية حيث وصل تأنقهم فى أسلوبهم الأدبى إلى ذروته ، ومن ذلك ما كتبه الخوارزمى " ...

ويصـــب فى سمعى من خبر انحسام دواعى هذه المهنة ، ما يعـــيد شبابى الذى ولى ، ويطرد شيبى الذى تجلى ، فحق لمن شاب مـــن ســـماع مايسوءه ، أن يشب من سماع ما يسره ، وحق لجسم

هدمه الغم الأمسي ، أن يبنيه الفرح اليومي وحق للدهر أن يكف فقد بالغ في العقاب وتناهى في العقاب ، وحق لصروفه أن تتصرف فقد أشفت وشفت ، واكتفت وكفت ، وزادت على ما في الإمكان وأوفت ...[١].

وهكذا راح الأديب في أسلوبه : يسجع ويجانس ويطابق ويبالغ ويهول ما استطاع إلى ذلك سبيلا ومثله سائر أدباء عصره حتى أصبح هذا الأسلوب المحلى بالسجع والبديع والمبنى على المبالغة والتهويل من أهم خصائص الأدب البويهي.

ويبدو أن السبب الرئيسي لانتشار هذه الظاهرة في الأدب البويهي إنما نشأت عن طبيعة الشعب الفارسي وذوقه الفني حيث يولع بالزخرفة والتأنق فيها في سائر فنونه وأحوال معيشته والأدب البويهي نما وترعرع في ظلال شعب فارسي وحضارة فارسية ، حيث كان الفرس يميلون إلى المبالغة والغلو والإسراف في كل شيء فبدت هذه الظاهرة : ظاهرة المبالغة والتهويل في المعاني الأدبية ظاهرة واضحة بجانب التأنق الشديد في الأسلوب والإسراف في استخدام السجع مقروناً بالمحسنات البديعية من طباق وجناس والتزام ذلك التزاماً تاماً في كل ماينشئون من أدب .

أما الأدب الشعبي فقد جاء خاليا من الصنعة اللفظية ومن المعاني العميقة والخيالات الدقيقة ، خاليا من المبالغة والتهويل

---

(١) رسائل الخوارزمي صـ ٧.

والاستعارات والمجازات والتشبيهات المعقدة ، وجاء نمطا مغايراً للنمط الأول من الأدب ، فقد جاء الأدب الشعبى أدباً بسيطا ساذجاً فى أساليبه ومعانيه بساطة ومذاجة الشعب وحياته العادية البسيطة التى كان يعيشها ، ووجدنا كثيرا من الألفاظ والمعانى العامية واضحة فى أشعار هذا اللون ويبدو ذلك فى شعر ابن الحجاج وشعر ابن سكرة وأشعار الصعاليك ، ومثال ذلك قول السوسى :

الحمد لله ليس لى بخت ولا ثياب يضمها تخت
سيان بيتى لمن تامله والمهمه الصحصحان والمرت
أمنت فى بيتى اللصوص فما للص فيه فوق ولا تحت
فمنزلى مطبق بلا حرس صفر من الصفر حيثما درت
إبريقى الكوز إن غسلت يدى والطين سعدى ودارى الطست

٢- كذلك ظهر فى الأدب البويهى أثر العقائد الشيعية، حيث راح البويهيون يشجعون التشيع بأوسع معانيه وراحوا ينشرون التشيع بكل قوة خاصة فى بغداد التى كانت قبل الدولة البويهية على مذهب أهل السنة والجماعة يجلون الصحابة ويفضلون أبا بكر وعمر على سائرهم ولا يقدحون فى معاوية ولا فى غيره من السلف المسلمين فلما جاءت الدولة البويهية الشيعية المغالية فى عقيدتها نما التشيع ببغداد وساندته الحكومة بكل ما تملك .

وفى سنة ٣٥٢ هـ عاشر المحرم أمر معز الدولة أن يقفل الناس دكاكينهم ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء ويظهروا النياحة

وينصبوا القباب وتخرج النساء مثشرات الشعور مسودات الوجوه قد شققن ثيابهن ، يدرن بالبلد بالنوائح ويلطمن الخدود والوجوه على الحسين بن على ففعل الناس ذلك وكان هذا أول يوم نيح على الحسين ببغداد [١]" ، وكذلك في الثامن عشر من ذى الحجة جعل منه احتفالاً بمناسبة يوم غدير خم .

واستمر الشيعة منذ ذلك يحتفلون بيوم بؤسهم ويوم نعيمهم من كل عام ثم أضافوا إليهما أياما أخرى .

وراح الأدباء والشعراء يصورون هذه الحياة التى أثرت فيها العقائد الشيعية وتقاليدها وما تحويه من أحزان وأفراح خاصة ذكرى استشهاد الحسين بن على ،حيث كثر النائحون والنائحات وكثر الشعر الذى ينظمه الشعراء ليناح به عليه ومنه قول الناشىء :

بنى أحمد قلبى لكم يتقطع ... بمثل مصابى فيكم ليس يسمع

عجبت لكم تفنون قتلا بسيفكم ... ويسطوا عليكم من كان يسمع

كأن رسول الله أوصى بقتلكم ... وأجسامكم فى كل أرض توزع

واتسعت دائرة الأدب الشيعى وعظم فى الحياة الأدبية فى القرن الرابع الهجرى حيث تهيأ له من الظروف السياسية والاجتماعية ما مكنت له خاصة وأن دولاً شيعية كانت قائمة ويتولى أمرها الشيعة كالدولة البويهية والدولة الفاطمية .

ووجد كم هائل من الشعراء الشيعة أو المتشيعين مثل :

---

(١) ابن الأثير ٧ : ٤.

الصاحب بن عباد والخوارزمى والشريف الرضى ومهيار الديلمى وغيرهم .

وقد ورد للصاحب بن عباد عشرة آلاف بيت فى مناقب أهل البيت والتبرى من أعدائهم ومن شعره فى هجاء معاوية رضى الله عنه :

قالت تحب معاوية ؟ قلت اسكتى يا زانية
قالت أسأت جوابا فأعدت قولى ثانية
يازانية يابنت ألفى زانية أأحب من شتم الوصى علانية؟
فعلى يزيد لعنة وعلى أبيه ثمانية

وأما مهيار الديلمى- المجوسى الذى أسلم على يد الشريف الرضى – فقد تشيع ودفعه تشيعه إلى هجاء الصحابة هجاء مقذعاً حتى قيل إنه بإسلامه قد انتقل من زاوية فى النار إلى زاوية أخرى".

وكان الخوارزمى شيعيا متعصبا ، وكان الشريف الرضى أبرع أدباء الشيعة فى تصوير آلامهم ومآسيهم فى شعره ورثى الحسين بشعر كثير كله أسى وشجى ويمتاز بالصدق والروعة ولا غرابة فى ذلك فهو سليل آل البيت النبوى وله قصيدتان رائعتان فى رثاء الحسين هما : المقصورة والرائية ، ويصف فى الأولى موقعة" الطف"، وصفاً مثيراً ويبدؤها بندائه على كربلاء فيقول [١]:

كربلاء لازلت كربا وبلا ما لقى عندك آل المصطفى

---

(١) ديوان الشريف الرضى طبعة بيروت جـ ١ صـ ٣٣.

كم على تربك لما صرعوا   من دم سال ومن دمع جرى
كم حصان الذيل يروى دمعها   خدها عند قتيل بالظما
تمسح الترب على إعجالها   عن طلى نحر رميل بالدما
وضيوف لفلاة قفرة   نزلوا فيها على غير قرى
وتنوش الوحش من أجسادهم   أرجل السبق وأيمان الندى
ووجوها كالمصابيح فمن   قمر غاب ومن نجم قد هوى
يا رسول الله لو عاينتهم   وهم ما بين قتلى وسبا
من رميض يمنع الظل ومن   عاطش يسقى أنابيب القنا
لرأت عيناك منهم منظراً   للحشا شجواً وللعين قذى

والقصيدة الرائية يظهر فيها حزنه وانهمار دموعه على آل البيت منها قوله:

ورب قائلة والهم يحتفنى   بناظر من نطاف الدمع ممطور
خفض عليك فللأحزان آونة   وما المقيم على حزن بمعذور
فقلت هيهات فات السمع لائمه   لا يفهم الحزن إلا يوم عاشور

وكان من نتيجة هذا الشعر المتشيع أن حدث هناك رد فعل جارف من شعراء أهل السنة ونظموا شعرا وأدباً سنيا مناقضاً للأدب الشيعى ، وتولد هناك صراع طائفى بين السنة الشيعة وبين أنصار كل طائفة من الأدباء والشعراء وظهر أثر هذا الصراع فى الشعر والأدب البويهى ، وراح شعراء أهل السنة وأدبائهم بقيادة أبى الحسن على بن سعيد السكرى يمدحون الصحابة ويناقضون شعراء الشيعة

وقد سمى السكرى بشاعر السنة " وبديع الزمان الهمزانى الذى راح يهجو القادحين الذين يسبون الصحابة ويهجو مذهب الشيعة.

ويقول بديع الزمان الهمزانى وهو أديب سنى متعصب لمذهبه – يمدح الصحابة ويهجو الخوارزمى الذى سب الصحابة وكان شيعيا متطرفا :

وكلــــنى بـــــالهم والكآبـــــة   طعانــــــة لعانــــــة ســـــبابة
للســـلف الصـــــالح والصـــحابة   أســـاء ســـمعاً فأســـاء الإجابة
تـــأملوا يـــا كـــبراء الشـــيعة   لعشـــرة الإســـلام والشـــريعة
أتســــتحل هــــذه الوقــــيعة   فـــى تـــبع الكفر وأهل البيعة ؟
فكيف مـــــن صدق بالرسالــــة   وقـــــام للديــــن بكل آلة ؟

فكان الخوارزمى شيعيا متعصبا يتعصب لآل بويه والهمزانى ســـنى متعصب لسنيته فدارت بينهما المناقضات والمناظرات الأدبية وما ذلك إلا أثر من آثار النزاع المذهبى بين السنة والشيعة .

٣– كذلـــك مـــن خصـــائص الأدب الـــبويهى : ظهور الروح الفارســـية والعـــادات والتقالـــيد الفارسية التى أحياها النظام الحاكم فى الدولة البويهية حيث انعكس آثار هذه الروح والتقاليد فى الأدب البويهى وكانـــت واضـــحة كل الوضوح فى آدابهم وأشعارهم من حيث الغلو الذى ساد شعر المديح وشعر الرثاء والاكثار من شعر التهانى بالأعياد الفارســـية ووصـــيفها وهـــذه النزعة الفارسية التى ظهرت فى الشعر والأدب بوجـــه عام أوجدت نزعة مضادة لها وهى نزعة عربية أصيلة تزعمها الشريف الرضى .

الدولة الفاطمية

قيام الدولة الفاطمية :

بعـــد سيطرة العباسيين على الخلافة فى عام ١٣٢ هـ أصبح الشيعة أكثر تطلعا إلى الملك وخلافة المسلمين حيث يعتبرون أنفسهم أحق بالخلافة من العباسيين وأن العباسيين قد اغتصبوا الخلافة منهم ومـــن قـــبلهم الأمويـــون ، وحمل الشيعة لواء المعارضةضد الدولة العباســـية فكـــان هناك محمد النفس الزكية الذى التف حوله أتباعه وكـــان هناك زيد بن على الذى تجمع حوله أنصاره ثم محمد الباقر مـــن بعـــده ثم جعفر الصادق ثم موسى الكاظم وأتباع إسماعيل بن جعفر الذى ينتسب إليه فرقة الإسماعيلية .

وظلـــت الشـــيعة الإســـماعيلية تعمل سراً على نشر المذهب الإســـماعيلى فـــى كـــل مكان واتخذوا لهم مراكز باليمن يبثون منها دعوتهـــم وقـــد أحـــاطوا أنفســـهم بالكتمان خوفا من القتل والتشريد واعـــتقادهم بأنه يجوز للإمام أن يستتر إذا لم تكن له قوة يظهر بها على أعدائه .

وقـــد ظلوا كذلك حتى تمكن الداعى : أبو عبد الله الشيعى أن يضـــم جماعـــة من قبيلة كتامة من سكان شمال إفريقية إلى العقيدة الشـــيعية والمذهب الإسماعيلى وما زال يعمل سراً حتى أصبح قوة عســـكرية بفضل ما اجتمع حوله من الكارهين للأغالبة الذين كانوا يحكمـــون شـــمال إفريقـــيا مـــن قبل العباسين(١٨٤هـ – ٢٩٦هـ)

واستطاع أن يقضى على الأغالبة نهائياً سنة ٢٩٦هـ وأن ينادى بأحد سلالة على بن أبى طالب ويدعى " سعيد بن الحسين " إماماً ولقبه : عبيد الله المهدى .

ثم أرسل إلى عبيد الله المهدى يدعوه إلى القدوم للمغرب ليتولى أمور دولته وفى أثناء سفره قبض عليه والى سجلماسة وأودعه السجن هو وابنه القائم حتى جاء أبو عبد الله الشيعى على رأس قوة كبيرة وأطلق سراحه هو وابنه القائم ، ثم توجه إلى "رقادة"[1] واتخذها عاصمة لدولته الفاطمية سنة ٢٩٧هـ وبذلك أقامت الدولة الفاطمية بذرتها الأولى فى شمال إفريقية .

ثم قام أبو عبيد الله المهدى بالتخلص من أبى عبد الله الشيعى خوفاً من افتتان الناس به وقيل لخروجه عليه ، ثم اتخذ عبيد الله المهدى عاصمة جديدة لدولته بناها بنفسه وأطلق عليها اسم مدينة "المهدية "[2] نسبة إليه فى عام ٣٠٣هـ .

وبدأ عبيد الله المهدى يعمل جاهداً على امتداد سلطانه نحو برقة وليبيا ومصر شرقا والجزائر والمغرب غرباً وأعلن نفسه خليفة فصار فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات : العباسية فى بغداد والأموية فى قرطبة والفاطمية فى المهدية.

---

(١) رقادة : ضاحية من ضواحى القيروان.

(٢) المهدية : على ساحل تونس وهى على مسافة ١٦ ميلا من الجنوب الشرقى لمدينة القيروان الحالية .

ثـــم توفى عبيد الله المهدى سنة ٣٢٢هـ وتولى الخلافة بعده ابـــنه القائم الذى حاول فتح مصر مراراً إلا أنه لم ينجح فى فتحها ، ثم تولى بعده ابنه : المنصور الذى بنى أسطولاً ضخما وأنشأ مدينة: المنصــورية وجعلهــا عاصمة لدولته ، ثم تولى بعد المنصور ابنه الخلــيفة : المعــز لديــن الله الــذى استطاع أن يفتح مصر وتم له الاســتيلاء عليها سنة ٣٥٨هـ بسبب ضعف الإخشيديين الذين رحب بعضـــهم بالفاطمييـــن وبســبب ضـــخامة الجيوش الفاطمية وحسن استعدادها ، ثم أسس جوهر الصقلى – قائد الخليفة المعز لدين الله – مديـــنة القاهـــرة فى نفس العام سنة ٣٥٨ هـ قبل قدوم الخليفة المعز لديـــن الله إلـــيها ســـنة ٣٦٣هـ حيث أصبحت القاهرة حينئذ عاصمة للدولـــة الفاطمـــية الممتدة من مراكش إلى آخر الحدود المصرية ، ويعبر ابن هانئ الأندلسى عن فرحة الفاطميين بالاستيلاء على مصر بقوله :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر ... فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الأسكندرية جوهـــر ... تطالعه البشرى ويقدمه النصر

ثـــم قـــام الخليفة المعز لدين الله بتوجيه الجيوش والدعاة من القاهـــرة إلى مناطق أخرى من بلاد العالم الإسلامى وأنشأ المراكب البحرية بمدن : مصر والإسكندرية ودمياط وسيرها إلى بلاد الساحل وأقام فى مصر حضارة عظيمة حتى تمكن صلاح الدين الأيوبى من إزالة ملكهم سنة ٥٦٧هـ .

ثم اتجهت أنظار الفاطميين إلى بلاد الشام وضمها إلى دولتهم حيث استولوا على الرملة سنة ٣٥٨ هـ وعلى دمشق سنة ٣٥٩هـ حتى تمكن القراطمة من الاستيلاء عليها سنة ٣٦٠ هـ ثم قام المعز بانتزاع دمشق مرة أخرى من يد القرامطة ثم خرجت من ايديهم مرة أخرى حتى تمكن الخليفة العزيز بالله الفاطمى من الاستيلاء على دمشق مرة أخرى ثم قام الفاطميون بانتزاع فلسطين ودمشق بقيادة العزيز بالله الذى قاد الجيوش بنفسه وظلت الشام ما عدا حلب تحت حكم الفاطميين أيام العزيز بالله ، ثم تولى الحاكم بأمر الله الخلافة بعد أبيه العزيز بالله الذى استطاع أن ينتزع مدينة حلب ويضمها إلى دولته ثم خرجت حلب من أيديهم لأيدى بنى كلب ثم جاء الخليفة الظاهر الفاطمى وأعادها للسيادة الفاطمية ولكنها لم تستمر فى حوزتهم ، ثم قام السلاجقة بالاستيلاء على بيت المقدس ودمشق والرملة حتى جاء الخليفة المستعلى بالله واستردها منهم وظلت فى حوزته حتى جاء الغزو الصليبى واستولى على بيت المقدس وأنطاكية وحاول الفاطميون استرداد بيت المقدس من الصليبيين دون جدوى .

ثم اتجه الفاطميون بأنظارهم إلى العراق واستمالوا أميربنى عقيل الذى أعلن الدعوة للفاطميين وعمل على نشر دعوتهم فى الكوفة والموصل والأنبار والمدائن وحذف اسم الخليفة العباسى

وأحل محله اسم الخليفة الفاطمى"[١] ثم انتشرت الدعوة للفاطميين فى بلاد العراق فى عهد الخليفة الظاهر ثم كانت حركة البساسيرى الذى أعلـن الطاعة للخلافة الفاطمية وخطب للخليفة الفاطمى على منابر بغداد .

كذلـك امتد نفوذ الفاطميين إلى بلاد فارس على يد الداعى : هبة الله الشيرازى حتى استطاع أن يستملى أبا كاليجار البويهى إلى الفاطميين .

كذلـك انتشرت الدعوة الفاطمية فى بلاد اليمن ودخلت تحت الطاعـة الفاطمـية وظلت حتى جاء صلاح الدين الأيوبى واستولى علـيها سنة ٥٦٩هـ وقضى على نفوذ الفاطميين وانتقلت السيادة إلى الأيوبيين ، كذلـك استولى الفاطميون على مكة والمدينة والبحرين وعمـان وغيرها من مدن الجزيرة وانتشرت فيها دعوتهم ومذهبهم الإسماعيلى .

عقيدة الدولة الفاطمية :

اعـتقد الفاطمـيون المذهب الشيعى الإسماعيلى الذى تدور عقائده حول المبادئ الاتية :

١- يرون الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بن أبـى طالـب فهـو خليفته الشرعى وأن أبا بكر وعمر وعثمان قد اغتصـبوا الخلافـة ظلمـا وعدوانا ، فهم ظالمون لأنهم أخذوا حقا

---

(١) صـ٨٥ النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق .

أعطـــاه الرسول صلى الله عليه وسلم للإمام على فى يوم غدير خم" حيـــث قـــال الرسول صلى الله عليه وسلم فى حقه:" من كنت مولاه فعلـــى مولاه ،اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله " كما يروى الشيعة .

٢- يعتقدون بعقيدة الوصاية والنص بمعنى أن الرسول صلى الله علـــيه وســـلم قـــد أوصـــى لعلى بالخلافة وأن ذلك كان بالنص والتعييـــن لا بالإشـــارة والتلميح وأطلقوا على على لقب : الوصى ، ويـــرون أنـــه لوجوب استحقاق الإمامة أن ينص الإمام السابق على الإمام اللاحق وهكذا .

٣- يقولون بعقيدة الوراثة : أى أن الإمامة تنتقل من إمام إلى إمـــام عن طريق الوراثة ويرون أن الوريث الشرعى للرسول صلى الله علـــيه وســـلم هو على ابن ابى طالب وذريته من بعده واستدلوا علـــى ذلـــك بقول الله تعالى : ﴿ **وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾ وفسروا ذلك بالإمامة .

ونظـــام الوراثة عندهم يقوم على انتقال الإمامة من الأب إلى الابـــن والسبب فى ذلك حسب اعتقادهم : أن للإمامة صفات وعلوماً خاصة تنتقل بالوراثة كما تنتقل الصفات الخلقية تماماً من الأصل إلى الفرع

٤- ويعتقدون بالتقية : أى يجيزون إظهار الإنسان خلاف ما يبطـــن حفاظا على حياته وأمواله وعرضه ، بل يوجبون التقية عند الضرورة ويرون أن الإمام عليا بن أبى طالب قد تنازل عن الخلافة لأبى بكر تقية ، وقد أصبح الشيعة بفضل مبدأ التقية مدرسة للمخاتلة

والعـــدر كما أن عجز الشيعى عن المجاهرة بعقيدته الحقيقية أصبح مدرسة للسخط الكامن الذى يكنه الشيعة لخصومهم الأقوياء .

٥-ويعتقدون أن الإمامة ركن من أركان الدين ، بل هى ركن الدين الأول وقاعدة الإسلام ، وأنه من أصبح من هذه الأمة بلا إمام لـــه أصبح ضالاتائها وأن من مات ولم يعرف إمامه مات ميتة كفر ونفـــاق ، ويـــرون أن دعائم الدين هى : الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والولاية وأن أعظم هذه الدعائم وأفضلها هى الإمامة ، وأن من أطاع الله وعصى الإمام فهو عاص وأن من شك فى الإمامة فقد خرج من الدين وأصبح مثل اليهودى .

٦- ويعـــتقدون أن الإمــــام قـــد أوتى علم القرآن كله ظاهراً وباطـــناً وأنه المشرع الأول لعلوم الدين والشريعة ولا يمكن معرفة أحكام الدين إلا عن طريقه أو طريق أنصاره من الدعاة ، وأن طاعة الإمــــام واجبة ولا يجوز عصيانه لأن الله فرض طاعته على عباده وأن رضاهم موصول برضى الله وغضبهم موصول بغضب الله.

٧- ويـــرون أن الإمام معصوم من الخطأ وهذه العصمة فى الظاهر والباطن وأنها واجبة فى حقه وأن الإمام معصوم كالنبى عن الخطـــأ والخطـــية وأن الإمام أفضل أهل زمانه على الإطلاق وأن الأئمة يشفعون لأتباعهم يوم القيامة .

٨- ويعـــتقد الفاطميون الشيعة : أن لكل شيئ ظاهراً وباطناً والباطـــن لا يعرفه إلا الأئمة ، وأن الباطن من عند الله قد خص به الأئمـــة وأن للقرآن ظاهراً وباطناً والناس لا يعلمون إلا الظاهر فقط

وأن الأئمـــة يودعون هذا العلم الباطن لكبار الدعاة بقدر مخصوص وأن علم القرآن كله عند على بن أبى طالب وعند الأوصياء من بعده ، ويضفون على الأئمة صفات الله تعالى فيرون أنه : الواحد القهار العزيـــز الحكيم وغيرها من أسماء الله الحسنى لأن الله عندهم منزه عن هذه الصفات والأسماء وجعلوها للمبدع الأول الذى يقابله الإمام، وقـــد أولـــوا مشـــاعر الحج وأرادوا بها الإمام حيث يطلقون عليه : الصـــفا والحجـــر والمروتين وغيرها والإمام عندهم جبل الله وعلم الهـــدى وجـــبل الديـــن ، وقـــد أولوا حملة العرش بالحدود الخمسة الروحانية ثم بحدود أرضية هم : النبى والوصى والإمام .

٩- ويعـــتقدون بالمهدى المنتظر أى أنه لابد من عودة الإمام المهـــدى الفـــاطمى الذى يعود فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا وظلما ، ويروون حديثا عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : من كذب بالمهدى فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كفر " .

١٠- ومـــن عقائدهم : أن البنت ترث كل ما يترك أبواها إذا لـــم يكـــن لهـــا أخ أو أخت، ومن عقائدهم : التكبير على الميت فى الصـــلاة تكبـــيرات تتناســـب كثرة وقلة مع مكانة الميت وقربه من الأئمة، وقطع صلاة التراويح فى رمضان والقنوت فى صلاة الجمعة ولا يعـــتقد الفاطميون بالتناسخ والحلول مثلما قالت بعض الطوائف الشيعية الأخرى ولا يعترفون بالقياس أو الرأى أو الاجتهاد إلا برأى الأئمـــة وأقوالهم ، والفاطميون يكفرون من قال بألوهية على والأئمة من بعده ويلعنون من يقول بالإباحة ويجعلونهم واليهود سواء .

الأدب في عهد الفاطميين :

لقد بلغت الحياة العلمية والأدبية في عهد الدولة الفاطمية مبلغاً عظيما وتفوقت في ذلك على بعض أقرانها من الدويلات الأخرى في ذلـك الوقـت ، واستطاعت الدولة الفاطمية أن تنتزع زعامة العالم الإســلامي في العلم والأدب وأن تبسط آراءها وتعاليمها على الدول الأخرى مثلما بسطت سلطانها وسياستها سواء بسواء .

وقد بلغ من تفوق الدولة الفاطمية علما وأدبا أن كانت تجذب إليها الكثيرين من العلماء والأدباء واتخذ كثير من الأدباء والشعراء من الدولة الفاطمية ملجأ لهم يلوذون به ويعيشون في ظله .

ولقد ازدهر الشعر العربي ازدهاراً عظيما في أحضان الدولة الفاطمـية وتفوقـت فـيه علـى الدويلات السابقة عليها : كالدولة الطولونية والأخشيدية أو اللاحقة كالدولة الأيوبية ، وأن ما جاءنا من شـعر هذه الدولة يدل على أنه كانت هناك نهضة شعرية كبرى وأن تـيارها كان جارفاً وأنه كان هناك عدد كبير من الشعراء لم يتوفر لأي عصـر مـن العصور الأدبية الأخرى ، وبلغ من رواج الشعر العـربي في هذا العصر أننا وجدنا الشعر ينطق به كل لسان ، فكان هـناك الـنحويون الشـعراء والكـتاب الشعراء والأطباء الشعراء وأصـحاب الحـرف الشـعراء فضـلا عن الكثيرين من الشعراء المتخصيصن في نظم الشعر والذين بلغوا المئات ، وكان وراء هذه النهضة الشعرية عوامل كثيرة منها :

أولاً : عروبة الخلفاء الفاطميين وثقافتهم الواسعة فى مختلف العلوم والآداب وذكائهم المتوقد واطلاعهم على الشعر العربى القديم ونقدهــم لهــم بل والنظم أحياناً ، فضلاً عن أنهم كانوا خطباء بلغاء فصحاء :

فأول خلفائهم كان فقيها عالما أديبا خطيبا يرتجل الخطب فى كافــة المناســبات.والخلــيفة الثانى القائم كان عالِما فقيها وخطيبا وشاعراً ومن شعره:

ألا إن حد السيف أشفى لذى الوصب ... وأحرى بنيل الحق يوما إذا طلب
صبرت وفى الصبر النجاح وربما ... تعجل ذو رأى فأخطأ ولم يصب
إلــى أن أراد الله إعزاز دينــه ... فقمت بأمر الله قومــه محتسب

إلى آخر القصيدة : –

والخلــيفة الثالث : المنصور بالله : كان فصيحا بليغاً كما كان شــاعراً ينظم الشعر ويتذوقه ومن شعره قوله فى أحد أيام الحروب بينه وبين مخلد بن كيداد :

تبدلــت بعــد الزعفــران وطيبه ... صدا الدرع من مستحكمات السوامر
ألــم ترنى بعت المقامة بالسرى ... وليــن الحشايا بالخيول الضوامر
وفتــيان صدق لا ضغائن بينهم ... يــثورون ثوارى الأسود الخوادر
أرونى فتى يغنى غنائى ومشهدى ... إذا رهــج الــوادى لوقع الحوافر
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد ... بسيفى أقد الهــام تحت المغافر

وكــان الخلــيفة المعز لدين الله أعظمهم علما وأكبرهم أثراً

وأصبح إماماً فقيهاً وأديباً وخطيبا مفوها وشاعرا يتذوق الشعر وينقده وينظمه ويدعو إلى نظمه ، ومن شعره قوله :

أطلع الحسن من جنبيك شمسا فوق ورد في وجنتيك أكلا
وكأن الجمال خاف على الشَوْرِّ دِ جفافا فمد بالشعر ظلا

كذلك كان الخليفة العزيز بالله خطيبا وفقيها وأديبا وشاعراً وله أشعار كثيرة ، وكذلك الخليفة الحاكم بأمر الله والخلفاء الفاطميون من بعده : كالظاهر والمستنصر والمستعلى والآمر والحافظ والظافر والعاضد كانوا جميعا يرتجلون الخطب ويحبون العلم والأدب حبا جما ويقدرون الشعر وينظمونه ويتذوقونه وينتقدونه.

ثانياً : تشجيع الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وأمرائهم وقوادهم وكبار رجال دولتهم للشعر والشعراء وإغداق الأموال الطائلة عليهم فى مختلف المناسبات خاصة وأنهم قد عرفوا ما للشعر من أثر كبير فى نشر عقائدهم فراحوا يعطون الشعراء دون حساب من أجل نشر مذهبهم وزيوع شأنهم بغرر مدائح الشعراء ، ولقد شجع الخلفاء الفاطميون جميعا الشعر والشعراء من لدن الخليفة الأول وحتى آخر خلفائهم العاضد بالله .

وراح الخلفاء الفاطميون يشجعون الشعراء بمختلف الوسائل الممكنة ويقربونهم إليهم ويتخذون منهم شعراء خاصة بهم مثل ابن هانئ الأندلسى الذى كان شاعر المعز لدين الله الخاص ولم يكن

هـناك ممدوح أعز شاعره كما أعز المعز ابن هانئ ، وحينما سمع خـبر موتـه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله كنا نرجو أن نفاخر به شـعراء المشرق فليم يقدر لنا[١] وبلغ من تشجيع المعز للشعراء أن جعل لهم رواتب شهرية فى بيت المال .

كذلـك اتخذ الخليفة الحاكم بأمر الله ابن يونس المنجم شاعراً خاصـا بـه وأغـدق عليه كما أغدق على كل شعراء عصره لينال مدائحهم.

ويحدثنا الشاعر الفاطمى السنى المذهب ظافر الحداد عن جود الخلفـاء الفاطميين وإغداقهم العطايا للشعراء تشجيعا لهم على نظم الشعر قوله :

وسـكنت بالفسـطاط مغـتربا ... فلقـد كسـبت بغربـتى شـرفا
ورقيـت مـن مـدح الملوك بها ... رتـباً أنافـت فـى العـلا كنفا
وكسبت مـالاً لـو يوفـره ... جدواى لم أعـرف له طرفا

ويحكـى المقريزى أن الخليفة الآمر لما دخل وقرأ الأشعار الـتى كتبـت على قطع من القماش وكل قطعة مكتوب عليها شعر الشـاعر واسـمه أمر أن توضع على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ".

كذلك عمل الوزراء الفاطميون على تشجيع الشعر والشعراء علـى مخـتلف أزمنتهم : فهذا الوزير يعقوب بن كلس كان يجزل

---

(١) ظهر الاسلام صـ ٢٠٧ جـ ١ .

العطـــاء للشعراء ويمنحهم المنح الوفيرة وكان يجود عليهم بكل ما يســـتطيع بـــل كـــان يخص بعض الشعراء برعايته مثل : أبو حامد الأنطاكى وأبو عبد الله بن أبى الجرع وغيرهما .

كذلك كان شأن الوزير : الأفضل بن بدر الجمالى الذى التفت حـــوله الشـــعراء لكثرة عطاياه فقد كان جزيل العطاء غزير المال جواداً عليهم لينال مدائحهم ، وقد ساعد هذا الوزير وأعانه على كثرة العطاء أنه كان شاعراً ينظم الشعر ويتذوقه وينقده فمن شعره قوله :

أقضـــيب يمـــيس أم هـــو قـــد أو شـــقيق يلـــوح أم هـــو خـــد
أنا مثل الهلال سقمـــا عليـــه وهو كالبـــدر حين وافاه سعد

وهـــذا أبو الحسن بن الزبد الشاعر الفاطمى يحدثنا عن جود الأفضل ومنحه الوفيرة التى كان يمنحها للشعراء فيقول :

خلـــع الـــزمان علـــى حلـــة مفخر شـــرفا بمدح الأفضل المفضال
يلقى المدائـــح بالمنائح واهبـــا ويصـــدق الأقـــوال بالأفعال

وقد كان عصر الأفضل من أزهر الأيام الأدبية التى شهدتها الدولـــة الفاطمـــية حيـــث اتصل به كثير من الشعراء الذين مدحوه فأعطـــاهم منحه وجوائزه أمثال : أمية بن أبى الصلت وظافر الحداد ومســـعود الدولـــة والناجى المصرى ومحمود الإسكندرانى ومروان اللكـــى وســـالم بـــن أبى حصينة وابن البرقى وأبو الحسن بن الزبد وغيرهم .

كذلـــك كـــان الوزير بدر الجمالى من أهم الوزراء وأكثرهم

تشجيعا للشعر والأدب وكان يغدق على الشعراء فيتسابقون على بابه بأشعارهم لينالوا جوائزه حيث كان لا يرد أحداً من على بابه وكانت تأتى إليه وفود الشعراء كأنها وفود الحجيج .

ويعد الملك الصالح طلائع بن رزيك أشهر الوزراء الفاطميين الذيـــن كانت لهم يد طولى فى النهضة العلمية والأدبية والشعرية فى العصر الفاطمى ، فأغدق على الشعراء دون حساب وجعلهم يلتفون حوله ، ولم يشجع الشعراء بالمال فقط بل كان يتقرب إليهم ويجالسهم ويصـــادقهم وكـــان الشـــاعر عمارة اليمنى من أهم الشعراء الذين صادقهم وحاول أن يغريه بالدخول فى مذهب الشيعة دون جدوى فلم يؤثـــر ذلـــك علـــى صداقته وعطاياه ، وقد مدحه كثير من الشعراء وأشادوا به وجوده وكرمه فهذا الشاعر المهذب بن أسعد يقول فيه :

يـــا كعـــبة الجـــواد إن الفقر أقعدنى ... ورقة الحال عن مفروض حجيكا
مـــن ارتجى يا كريم الدهر ينعشنى ... جدواه إن خاب سعى فى رجائيكا
أألـــدح الـــترك أبغى الفضل عندهم ... والشعر مازال عند الترك متروكا
لا تتركنى وما أملت فـــــى سفرى ... سواك أقفل نحـــو الأهل صعلوكا

كذلـــك كـــان كل من الوزيرين : شاور وضرغام من أشهر الـــوزراء الذيـــن ساعدوا على النهضة الأدبية والشعرية فى الدولة الفاطمية على الرغم من الحروب والصراعات التى كانت بينهما من أجل الوزارة ، كذلك كان تشجيع الآخرين من كبار رجال الدولة من قواد وقضاة وغيرهم .

وهكذا كان سخاء الخلفاء والوزراء والقواد وإغداقهم الأموال علـــى الشـــعراء والأدباء عاملاً وراء هجرة كثير من شعراء البلاد الأخـــرى إلـــى أحضـــان الدولة الفاطمية لكي ينعموا بعطاء الخلفاء والوزراء ومنحهم الوفيرة .

ثالـــثاً : عظـــم الثروة التى كان ينعم بها الفاطميون والثراء الواســـع الذى كانوا يعيشون فيه والترف والبذخ الذى كان يحيا فيه الفاطميون فى دولتهم كان من أهم العوامل التى ساهمت بقسط كبير فـــى ازدهار الأدب الفاطمى وأعانت الخلفاء والوزراء على العطاء دون حســـاب للشعراء ، حيث تمتع الفاطميون بثراء واسع فاق ثراء الدولـــة العباسية فى عصريها فقد كان الوزير يتقاضى مرتباً شهرياً يـــبلغ خمسة آلاف دينارا خارجا عن الإقطاعات فضلا عن مرتبات لأولاده شهريا ومرتبات لخدمه وأتباعه ، كما بلغ من عظم الثروة أن أحـــد الموظفيـــن كـــان يحمل كيسا من الحرير فيه خمسمائة دينارا لتوزع فى الطريق الذى يمر به الخليفة .

رابعـــاً : كذلك من العوامل : كثرة الأعياد والمناسبات الدينية والسياسية والاجتماعية فى الدولة وإقامة الاحتفالات العظيمة فى كل هـــذه الأعـــياد وتلـــك المناســـبات واهتم الفاطميون اهتماماً عظيماً بالاحتفال بها وبالغوا فى ذلك بشكل قل مثله فى دولة أخرى خاصة فـــى الاحـــتفال بالأعياد الشيعية التى بالغوا فى الاحتفال بها إلى حد كبـــير وبلغ من عظم احتفال الفاطميين بأعيادهم أنهم كانوا يمنحون

الشـــعراء والكـــتاب والأعـــيان الذين يحضرونها حللا من الحرير الخالص بعضها مزركش بالذهب .

خامساً : إنشاء المساجد والمدارس والمكتبات والعناية بالكتب وعقـــد الندوات العلمية والأدبية وإقامة المحاورات والمجادلات بين الشـــعراء والعلمـــاء فى المجالس التى كان يعقدها الخلفاء والوزراء تشجيعا للعلم والأدب والشعر .

فقـــد عنى الفاطميون بتأليف الكتب وإقامة المكتبات الضخمة لاقتـــنائها كمـــا ذهـــبوا ينشئون المساجد والمدارس لتدريس الدعوة بجانب العلوم الأدبية والعربية الأخرى .

وبلـــغ مـــن شـــدة عناية الفاطميين بالكتب والعلم أن أنشأوا المكتـــبات الضخمة سواء كانت مكتبات خاصة بهم أم مكتبات عامة للشعب ، فقد كان لكل خليفة ولكل وزير فاطمى مكتبة خاصة به عدا المكتبات العامة ، وكان من أشهر هذه المكتبات : مكتبة القصر التى كانـــت تحـــتوى على أربعين خزانة من جملتها خزانة بها ١٨٫٠٠٠ مجلد فى العلوم القديمة وانه كان فيها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى بمفرده وكانت تضم نحو المليونين من المجلدات والكتب المنتخبة .

كذلـــك أنشـــأ الخلـــيفة العزيز بالله خزانة للكتب التى ضمت الآلاف من الكتب المختلفة .

واهـــتم الفاطمـــيون بإنشـــاء المساجد والمدارس وكان على

رأسها: الأزهر الشريف الذى أنشئ فى عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى فقد كان أول مسجد ينشأ فى القاهرة وثالث مسجد فى مصر بوجه عام وقد شرع جوهر الصقلى فى بنائه سنة ٣٥٩ هـ وأتم بناءه فى سنة ٣٦١ هـ واتخذ الأزهر معهدا لتدريس العلوم الإسماعيلية فى أول الأمـــر ثـــم أصبح جامعة إسلامية فى عهد الخليفة العزيز بالله وعلـــى يد وزيره يعقوب بن كلس ، وظل الأزهر مركز العناية من جانـــب الخلفاء جميعا وزودوه بمكتبة ضخمة خاصة به كانت تضم مـــئات الكتب والمجلدات ، وقد تنوعت الدراسة فى الأزهر بعد أن أصـــبح جامعة إسلامية يقصدها كل مسلم من أنحاء العالم الإسلامى وتعددت فيه مواد الدراسة من : فقه ونحو وصرف وأدب وبلاغة وفلسفة وغـــيرها ، وظل الأزهر فى العصر الفاطمى وما تلاه من عصور حتى يومنا هذا كعبة العلم يقصدها الطلاب من أنحاء العالم ويعودون إلى بلادهم لينشروا فيها نور العلم والدين والأدب والمعرفة.

وكذلـــك قام الخليفة الحاكم بأمر الله بإنشاء دار أطلق عليها : دار الحكمـــة أو دار العلم وألحق بها مكتبة ضخمة حوت كثيراً من أمهات الكتب وكبار العلماء والأدباء .

وظلـــت دار الحكمـــة بجوار الأزهر تقودان الحركة العلمية والأدبـــية فـــى ربـــوع الدولة الفاطمية وأخرجت الكثير من العلماء والأدبـــاء والفقهـــاء مما كان له الأثر الكبير فى إثراء الحياة الفكرية

والعلمية والأدبية فى الدولة .

كذلك أنشئت بجوارهما بعض المدارس الأخرى مثل مدرسة السلفى التى بناها الوزير الفاطمى ابن السلار سنة ٥٤٤ هـ كما بنى الخليفة الفائز مدرسة :الفائزية فى مدينة أسيوط ، ومدرسة الفقيه المحدث أبو طاهر بن عوف ومدرسة الشافعية فى عهد الخليفة العاضد وغيرها .

ومما تقدم نستطيع القول بأن هذه العوامل السابقة مجتمعة وغيرها هى التى أدت إلى النهضة الأدبية والشعرية والعلمية فى الدولة الفاطمية والتى كان من ورائها هذا التراث الهائل من العلوم والآداب والأشعار والعديد من العلماء والأدباء والشعراء .'

ومن الشعراء نجد : ابن سعدون الورجيلى (شاعر المهدى) وعلى الإيادى (شاعر القائم) وابن هانئ الأندلسى وتميم بن المعز وعمارة اليمنى وابن وكيع التنيسى وأبو حامد الأنطاكى وأبو الحسن العقيلى والمهذب ابن الزبير والمهذب الموصلى والحسن الأسوانى والمؤيد الشيرازى وأبو الحسن التهامى والصالح بن رزيك وابن قلاقس السكندرى والجليس بن الحباب وظافر الحداد وأبو الصلت الأندلسى وأسامة بن منقذ والمهذب أسعد وسناء الملك وابن النحاس وابن الدباغ وأبو الحسن الجزار والموفق بن الخلال وابن القطاع الصقلى والسلطان الخطاب وغيرهم الكثير من شعراء الدولة الفاطمية على اتساع رقعتها وأملاكها .

وقد سار الشعر الفاطمى فى اتجاهات عديدة أبرزها : الاتجاه نحو الدعوة للمذهب والاتجاه نحو المدح والاتجاه السياسى والاتجاه الاجتماعى وشعر الغزل والاتجاه نحو الطبيعة وغير ذلك من فنون الشعر :

١- الاتجاه نحو الدعوة للمذهب : ويسجل الشعراء فيه عقائد المذهب الإسماعيلى ومبادئه بحيث نستطيع أن نقف على عقائد هذا المذهب من خلال هذا الشعر الذى احتواه وما كانوا يعتقدونه من أفكار ، ومن هذا القبيل قول تميم بن المعز يدافع عن أحقية الفاطميين للخلافة معارضاً لابن المعتز : -

عجبت لمرتكب بغيه	غوى المقالة كذابها
وكيف يجوز سهام البنين	بنو العم أف لغصابها
بذا أنزل الله آى القرآن	أتعمون عن نص إسهابها
وفينا الإمامة لا فيكم	ونحن أحق بجلبابها
ومن لكم يا بنى عمه	بمثل البتول وانجابها
وما لكم كوصى النبى	أب فترامو بتشابهها

وهناك أشعار كثيرة قيلت فى هذا الاتجاه ونكتفى بهذا النموذج .

٢- شعر المدح : كثر شعر المدح فى الأدب الفاطمى كثرة هائلة نتيجة لتشجيع الخلفاء والوزراء لهذا النوع من الشعر وإغداقهم الأموال والمنح الثمينة على شعرائه مما أدى إلى كثرته ورواجه .

وكان شعر المدح حينئذ أشبه ما يكون بوسائل الإعلام فى

عصـــرنا حيــث كان الشعراء ينشرون على الشعب أعمال الخلفاء والوزراء ويوضحون سياستهم وأعمالهم داخليا وخارجيا .

وقــد اعــتمد الشــعراء الفاطميون فى المدح – خاصة مدح الخلفاء – على وصف الممدوح بالصفات والعقائد الشيعية التى ترفع شــأن الإمام وتنزهه وتقدسه ، فضلا عن الصفات الخاصة الحميدة الــتى تخــص الممدوح وفضلا عن المثاليات التى جاء بها الإسلام بجانب المثاليات التى عرفتها العصور السابقة .

وقــد نقــل الشعراء الفاطميون مديح الخلفاء من ميدان الكرم والشجاعة إلى ميدان التقديس والتنزيه والعصمة ، حيث أضفوا على ممدوحيهم كثيرا من الصفات القدسية التى دان بها المذهب الشيعى الفاطمى .

وكــان ابــن هانــئ الأندلسى وعمارة اليمنى والمهذب بسن الزبــير وظافــر والمهــذب الموصــلى من أكبر شعراء المدح فى عصرهم وقد مدحوا الخلفاء سعيا للمال والعطاء لا حباً فى المذهب والعقــيدة ، وكان تميم بن المعز والمؤيد الشيرازى قد مدحا الخلفاء عن حب وإخلاص لا من أجل المال والعطاء .

وقد ألم هؤلاء الشعراء بالعقائد الشيعية وكانوا شغوفين بها فى أشــعارهم ســواء كــان ذلك عن عقيدة كتميم والمؤيد أو تقربا إلى الخلفاء كالسابقين عليهما ، ومن ذلك قول ابن هانئ يمدح المعز :

ماشــئت لا مــا شــاءت الأقــدار فــاحكم فأنــت الواحــد القهار

وكأنما أنت النبي محمد ... وكأنما أنصارك الأنصار

وقوله فيه أيضا :

الناس إجماع على تفضيله ... وتشق عن مكنونها الأنباء
هذا الشفيع لأمة تأتي به ... وجدوده لجدودها شفعاء
هذا أمين الله بين عباده ... وبلاده إن عدت الأمناء
فعليه من سيما النبي دلالة ... وعليه من نور الإله بهاء
أعززت دين محمد بابن نبيه ... فاليوم فيه تخمط وإباء
أنت الذي فصل الخطاب وإنما ... بك حكمت في مدحك الشعراء
وأتوا بأن مديحهم لك طاعة ... فرض فليس لهم عليك جزاء

ويقول تميم في مدح أخيه العزيز بالله :

إمام كان الله وصاه بالعلا ... فليس له في غير معلومها أرب
كريم المحيا ماجد الأصل نزلت ... بتفضيله الآيات تدرس في الكتب
أقيس بك الأملاك طرا فلا أرى ... سواك زكي الأصل والفرع والنسب
إذا عجمت عيدان قوم فأخلقت ... تفجر من عيدانك الماء والضرب[١]

وهناك لونان من شعر المدح في العصر الفاطمي في مدح الخلفاء الفاطميين : لون تأثر كل التأثر بعقائد المذهب الإسماعيلي ، ولون آخر لم يتأثر بهذه العقائد ولم يتضمنها .

ويمكن تقسيم شعر المدح الفاطمي إلى أقسام ثلاثة :قسم تأثر فيه الشعراء الفاطميون بالشعر القديم من بدء المدحة بالغزل والنسيب

---

(١) الضرب : العسل الأبيض الغليظ .

وقسم لم يلتزم هذا النهج وبدأ المدحة بوصف الخمر أو الطبيعة أو الشيب أو غير ذلك ، وقسم ثالث نبذ الطريقتين ولم يمهد للمدحة بأى مقدمة تمهيدية بل راح الشعراء يمدحون الممدوحين مباشرة دون تقديم أو تمهيد .

كذلك مدح الشعراء الفاطميون : الوزراء والقواد والدعاة وكبار رجال الدولة وأضفوا عليهم كثيراً من الصفات المألوفة : كالشجاعة والكرم والعدل والعفة والوفاء والدفاع عن الدين وغير ذلك من الصفات فضلا عن الصفات الخاصة بكل ممدوح والتى تتفق مع مجال عمله واختصاصه وفضلا عن بعض الصفات الأخرى التى زادها الشعراء من عند أنفسهم ولقبوهم بها مثل : أمين الدولة والوزير الأجل وقطب الدولة وتاج المعالى ويد الدولة وناصر الدين وسيف الدين وغير ذلك من الصفات .

الشعر السياسى :

وهو هذا النوع من الشعر الذى دار حول أحقية الخلافة وما حدث فى عهد الفاطميين من أحداث سياسية وحربية سواء كانت هذه الأحداث على المستوى الداخلى أم على المستوى الخارجى .

وقد قامت الدولة الفاطمية على أساس دينى وسياسى بحجة استحقاق الفاطميين لخلافة المسلمين التى يرونها حقهم المفروض وإرثهم الذى ورثوه عن جدهم محمد صلى الله عليه وسلم وأوصى به لعلى بن أبى طالب ونص له بذلك يوم الغدير .

ويرى الفاطميون أن الأمويين والعباسيين قد اغتصبوا الخلافة

من أهلها الشرعيين وراح الشعراء الفاطميون يدافعون عن هذا الحق فـــي الخلافة ويؤيدون قولهم بالأدلة والبراهين النقلية والعقلية وجمع شـــعرهم بين الاحتجاج والتصوير وهجاء المغتصبين لحقهم ، ومن ذلك قول سعدون الورجيلي يثبت الخلافة لعبيد الله المهدي [١]:

كفـــى عـــن التثبـــيط إنـــي زائـــر ... مـــن أهل بيت الوحي غير مزور
هـــذا أمـــير المؤمنيـــن تضعضعت ... لقدومـــه أركـــان كـــل ثبـــير
هـــذا الإمـــام الفـــاطمي ومـــن به ... أمنـــت مغاربهـــا مـــن المحذور
والشـــرق لـــيس لشـــامه وعـــراقه ... مـــن مهرب من جيشه المنصور
حتى يفوز من الخلافـــــة بالمنـــى ... ويفاز منـــه بعدله المنشـــــور

وهـــناك أشـــعار كثيرة نحو هذا الموضوع وأشهرها أشعار تميم[٢] بن المعز التي راح بها يناقض عبد الله بن المعتز ويعارضه في أحقية الخلافة كذلك تتبع الشعراء الفاطميون كل الأحداث الداخلية والخارجية للدولة وصاغوها شعرا يعد سجلا سياسيا لما كانت عليه الأحـــوال السياسية في الدولة الفاطمية ، وكانت نغمة الجهاد الديني أنشـــودة سياســـية يرددها الشعراء وهم يشاهدون الخلفاء والوزراء والقـــواد يجـــودون بكـــل ما يملكون في سبيل الدين وسبيل مذهبهم الشيعي .

---

(١) صـــ ١٠٦ اتعاظ الحنفا.

(٢) ينظر ديوانه صـــ ٨٠ ومابعدها وصـــ ١٨٦ – ١٨٨ وصـــ ٣٣١ – ٣٣٣ على سبيل المثال .

ومـــن أهـــم هذه الأحداث جميعا : الحروب الصليبية : التى بدأت بين المسلمين والصلبيين عام ٤٩٠ هـ فى عهد الخليفة المستعلى بـــالله الفاطمى ووزيره الأفضل الذين فهما حقيقة ما يريده الصليبيون مـــن حملاتهـــم المتكررة حيث كانوا يسعون لاحتلال دول المسلمين وخاصة بيت المقدس والقضاء على الإسلام فى عقر داره .

قـــام الصـــليبيون أول الأمر بالاستيلاء على أنطاكية ومعرة الـــنعمان عـــام ٤٩١ هـ ثم زحفوا نحو بين المقدس ، فأرسلت الدولة الفاطمـــية جيوشـــها للتصـــدى لهؤلاء الصليبيين إلى فلسطين إلا أن الهـــزيمة لحقت بالجيش الفاطمى الذى كان يقوده الوزير الأفضل بن بدر الجمالى .

وراح الشعراء الفاطميون يسجلون هذا الحدث الكبير ويبعثون روح الجهاد فى نفوس المسلمين ويمدحون الخلفاء والوزراء والقواد ويحمسونهم لقتال الصلبيين ويشيدون بهم ويصفون المعارك وأدواتها ويـــرثون قـــتلى المسلمين ومن ذلك قول أمية بن أبى الصلت يشيد بشجاعة الأفضل ويسجل هذه الأحداث :

هـــى العـــزائم من أنصارها القدر ... وهى الكتائب من أشياعها الظفر
جـــردت للديـــن والأســـياف مغمدة ... ســـيفاً تفـــل به الأحداث والغير
وقمـــت إذ قعـــد الأمـــلاك كلهـــم ... تـــذب عـــنه وتحمـــيه وتنتصر
بقيت للدين والدنيـــا ولا عدمـــت ... أجياد تلك المعالـــى هذه الدرر

وقـــد كان للوزير الفاطمى طلائع بن رزيك انتصارات كثيرة

على الصليبيين ويقول الشاعر شرف الدولة بن جبر الاسكندرى فى ذلك :

أطفـأ ابـن رزيـك لهيب ضرامه ... والبيض تخطب فى الرؤوس فتسمع
وكتائـب للشـرك كنـت إزاءهـا ... متعرضـا فـانفض ذاك الـجمع
ولكم صرعت من الفرنـج سميدعا ... بلقائه لك قيل : أنـت سميـدع

كذلـك كان للوزير الفاطمى صلاح الدين الأيوبى انتصارات عـدة علـى الصـليبيين أثناء كان وزيراً فاطمياً أو بعد زوال الدولة الفاطمية على يديه وإقامة الدولة الأيوبية سنة ٥٦٧هـ – ٥٦٩ هـ .

كذلـك عـرف الشـعر الفاطمى:شعر الرثاء والغزل والفخر والطبيعة والخمر والزهد والحكمة وغيرها وبرعوا فيها براعة فائقة.

فقـد عـرف الشعر الفاطمى غرض الرثاء بلونيه : السياسى والاجـتماعى والهجـاء بلونيه السياسى والاجتماعى وشعرء الغزل بألوانه الأربعة : التقليدى والحسى والعفيف والغزل بالمذكر وجاءوا بمعان جديدة مبتكرة فى هذا الميدان ، وظهر شعر الوصف والطبيعة بوضوح تام فى الشعر الفاطمى واشتهر كثير من شعراء العصر فى هـذا الميدان مثل : ابن وكيع التنيسى وأبو الحسن العقيلى وتميم بن المعز وظافر الحداد وغيرهم .

وقد تنوعت موضوعات شعر الطبيعة من وصف : الكواكب والنجوم والأشجار والأزهار والأنهار والخلجان والفوارات والقصور والمـدن والـدور والنواعـير والأساطيل والأهرام والبرك والصيد والطـرد وغـير ذلـك من موضوعات الطبيعة الصامتة فضلا عن الطبيعة الحية التى ظهرت فى بيئتهم مثل : الخيل والطير .

ويعد نهر النيل من أهم الموضوعات التى برع الشعراء فى وصفها وأكثروا من وصفه فى أشعارهم وظل نيل مصر من أبرز الموضوعات التى ترددت فى نتاج الأدباء شعراً ونثراً خاصة وأنه النهر الوحيد الذى ورد ذكره فى القرآن الكريم(١).

وقد نظر الشعراء الفاطميون إلى نهر النيل نظرة خاصة ووقفوا أمامه يرصدون حركاته وسكناته وتفننوا فى تصويره بصور رائعة وبعيون مختلفة حيث راح كل شاعر يعبر عما يجول بخاطره ومشاعره نحو نهر النيل ، يقول الشاعر تميم بن المعز يصف النيل:

يوم لنا بالنيل مختصر ولكل يوم مسرة قصر
والسفن تصعد كالخيول بنا فى موجه والماء ينحدر
فكأنما أمواجه عكن وكأنما داراته سرر (٢)

ويقول أيضا فى النيل الشاعر ابن قلاقس السكندرى (٣):

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة واعجب لما بعدها من حمرة الشفق
غابت وأبدت شعاعاً منه يخلفها كأنما احترقت فى الماء بالغرق
وللهلال وقد وافى لينقذها فى إثرها زورق قد صيغ من ورق

ووصف الشعراء : الخليج المصرى وما يحيط به من مناظر رائعة كما وصفوا بركة الحبش والفورات والنواعير ويعد وصف

---

(١) فى قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ .

(٢) صـ ٢١٤ ديوان تميم بن المعز . وعكن : جمع عكنة وهو ماانطوى وتثنى من لحم البطن .

(٣) صـ ٧٥ ديوان ابن قلاقس.

النواعير من الموضوعات الجديدة التى ابتكرها الشعراء الفاطميون وكانوا أول من تطرق إلى وصفها ، ومن ذلك قول أبو الفرج الموقفى:

ناعورة تحسب فى صوتها ... متيما يشكو إلى زائر
كأنما كيزانها عصبة ... رموا بريب الزمن الجائر
قد منعبوا أن يلتقوا فاغتدوا ... أولهم يبكى على الآخر

كذلك أبدع الشعراء فى وصف الأزهار والرياض وتفننوا فى ذلك تفننا عظيما كما وصفوا الأثمار وفصول السنة الأربعة والقصور والأساطيل والمدن الفاطمية مثل : الفسطاط وعين شمس والجيزة وبولاق والجزيرة والعباسية والظاهرية وبلبيس فضلا عن المدن المغربية مثل : صبرة ورقادة وتهتان والرمل وودان وغيرها، وفضلا عن الأديرة التى كانت منتشرة فى ربوع الدولة وأشهرها : دير القصير ، وفضلا عن وصف الأهرامات ومنارة الإسكندرية ، يقول عمارة اليمنى فى الأهرام :

خليلى ما تحت السماء بنية ... تماثل فى إتقانها هرمى مصر
بناء يخاف الدهر منه وكل ما ... على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها ... ولم يتنزه فى المراد بها فكرى

كذلك وصفوا الشمعة وعود الغناء والحمام ولم يتركوا شيئا إلا وصفوه .

وقد جاء غرض الطبيعة مستقلا فى بعض أشعارهم دون مشاركة غرض آخر واكثروا من استخدام ألوان التصوير خاصة التشبيه والاستعارة واستعانوا بها فى تصوير صورهم الرائعة .

أثر العقائد الشيعية فى الشعر الفاطمى :

لقـد كـان للعقـائد الشيعية الإسماعيلية أثر كبير فى الشعر الفـاطمى سـواء كـان ذلك فى الأغراض أو الأفكار أو الأخيلة أو المعانى أو الألفاظ بل حتى فى نظام القصيدة .

أولاً : فمن ناحية الأغراض والموضوعات :

١- فقـد وجـد الشـعر العقائدى المذهبى الذى سجل العقائد الإسـماعيلية وصـاغها صـياغة شعرية لنشرها بين الناس تعليما للمذهب ودعوة لاعتناقه حيث كان اتجاها وغرضاً مستقلاً فى الشعر الفاطمى .

٢- كذلـك كثر شعر المحاورات والمجادلات والموازنة فى الشـعر ، حيـث راح الشـعراء يثبـتون أحقية الخلافة للفاطميين ويجـادلون لهـم فـيها آخذين فى جدالهم بالموازنة بين أئمتهم وبين خصـومهم مـن الأمويـين والعباسيين رادين على شعرائهم مفندين آراءهم فى أحقية الخلافة .

٣- كذلـك ظهر شعر التغنى بحب آل البيت وراح الشعراء يبـثون حـبهم وأشواقهم ويصفون عواطفهم نحو أهل البيت معبرين عن مدى صدقهم فى حبهم وإخلاصهم لهذه العترة من أبناء الرسول صلى الله عليه وسلم .

٤- وكـان مـن أثر العقائد الشيعية : ظهور الشعر السياسى الديـنى وكثرته حيث راح الشعراء الفاطميون يتحدثون عن الخلافة

وأحقيتها مثبتين ملكيتها لعلى بن أبى طالب وذريته من أولاد فاطمة الزهراء من بعده وأنها حق شرعى قد جعلها الله حقا لآل البيت .

٥- كذلك كان من أثر العقائد الشيعية : كثرة شعر المديح للأئمة الفاطميين حيث ذهب الشعراء إلى نظم الأشعار التى تشيد بهم وبمكانتهم الدينية والعلمية والسياسية معتقدين أن مدح الأئمة فرض فرضه الله تعالى على عباده وان الله قد مدحهم فى القرآن إشارة إلى ذلك .

ثانياً : كذلك أثرت العقائد الشيعية الفاطمية فى أفكار الشعر الفاطمى ومعانيه وأخيلته وصوره تأثيراً واضحاً فى مختلف أغراضه وفنونه حتى صبغته بالصبغة العقائدية للمذهب الإسماعيلى ، وأمدت هذه العقائد الشعراء بفيض زاخر من الأخيلة والصور والأفكار واتخذ الشعراء من العقائد الفاطمية مسبحا طويلا ينسجون منها أشعارهم ويجولون فيها بأخيلتهم معتمدين على ثقافتهم بتعاليم المذهب الإسماعيلى والوقوف على أسراره ومبادئه وعقائده : كعقيدة الإمامة: التى اعتبروها من أركان الدين وانه يجب معرفة الإمام ومحبته وطاعته وأن الإمامة منصب إلهى كالنبوة وأن الإمام معصوم من الخطأ وأنه مخلوق من نور الله كما خلق الأنبياء ولولاه ما خلق الله الخلق وأنه يشفع فى أمته يوم القيامة مثل النبى صلى الله عليه وسلم، يقول ابن هانئ يمدح المعز :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء

مـــن صفو ماء الوحى وهو مجاجة ... مـــن حوضه الينبوع وهو شفاء
مـــن أيكـــة الفردوس حيث تفتقت ... ثمــــراتها وتفــــيأ الأفـــــياء
من شعلة القبس التى عرضت على ... موســـى وقـــد جازت به الظلماء
مـــن معـــدن الـــتقديس وهو سلالة ... فخـــرت بـــه الأجـــداد والآبـــاء
هـــذا الشـــفيع لأمـــة تـــأتى بـــه ... وجـــدوده لجدودهـــا شـــفعاء
هـــذا أميـــن الله بيـــن عـــباده ... وبـــلاده إن عـــددت الأمـــناء
هذا الأغـــــر الأزهر المتدفق الـــ ... متألق المتبلـــج الوضـــــاء[1]

كذلـــك اتخـــذوا مـــن بقـــية العقائد الشيعية متكئاً لأفكارهم ومعانـــيهم وأخيلـــتهم وصـــورهم : كعقيدة الوصية والنص وعقيدة الوراثة وعقيدة المهدى المنتظر وهو عند الإسماعيلية : إسماعيل بن جعفـــر الصادق وعند الكيسانية : ابن الحنفية ، وعند الإثنا عشرية : الإمام الثانى عشر .

ومن ذلك قول تميم فى مدح أخيه العزيز :

وأنـــك أنـــت الخـــامس القائم الذى ... تدين له أرض العراقين عن قسر
وأنك مهـــــدى الأئمة كلهـــــم ... وصاحب ذا الوقت المسمى وذا العصر

وعقـــيدة الـــتأويل والظاهـــر والباطن ، حيث أول الفاطميون كلمـــات : يـــد الله ووجـــه الله وجنـــب الله والذكر الحكيم والصراط المســـتقيم والقـــرآن الكريم والفجر والنجم وغيرها على أنها الإمام ومواقـــع النجوم على أنها العترة الطاهرة وأولوا مشاعر الحج على

(1) صـــ{ ٧ – ٨ ديوان ابن هانئ الأندلسى .

أنهـــا الإمام، والأمانة على أنها الإمامة والكوكب الدرى هو **الإمام** وهو المقام والمشعر والصفا والمروة ومنى .

وعقـــيدة التوحيد وأدوار الأنبياء : حيث يختص **الفاطميون** بعقـــيدة خاصـــــة فـــى توحيد الله عز وجل **وينفردون** بها بين **جموع** المسلمين حيث ينزهون الله عن كل ما يتصف **به غيره** من **مخلوقاته** ونفـــى كل ما يتعلق بمبدعاته سواء كانت أعيانا روحية أو **مخلوقات** جسمانية ، وجعل الفاطميون كل صفات الله وأسمائه الحسنى **صفات** للمـــبدع الأول " أى القلـــم " وهو المثل ، ويعد النبى صلى الله عليه وسلم ممثولاً له ثم الأئمة من بعده .

فكـــل ما يتصف به القلم – حسب عقيدتهم – من أنه : الواحد والقهـــار والعزيز والقدير والقادر والرحيم والمنتقم وغيرها يتصف بهـــا ممثوله وهو النبى صلى الله عليه وسلم فى زمانه ثم تنتقل إلى الأئمة الفاطميين ، فعندهم أن نفى الصفة عن الله عز وجل هو نهاية هذه الصفة .

ومن ذلك قول ابن هانئ فى المعز :

ماشـــئت لا مـــا شـــاءت الأقـــدار فـــاحكم فأنـــت الواحـــد القهار
وكأنما أنـــت النبـــــى محمـــــد وكأنما أنصـــــــارك الأنصـــار

ثالثا : أثر العقائد في أسلوب الشعر :

كذلــك أثرت العقائد الفاطمية فى أسلوب الشعر الفاطمى من حيث : الألفاظ والاصطلاحات التى اصطلح عليها أصحاب المذهب الإســماعيلى ، حيــث راح الشــعراء يــرددون فــى أشعارهم هذه المصــطلحات الشــيعية مــثل لفــظ : الوصــى والدعى والناصب والغاصــب وركن الدين ومنار الدين واللعين والصلاة والسلام على الإمام وغير ذلك من الألفاظ .

***

المآسى العلوية وأثرها فى الشعر الفاطمى :

أولاً : من حيث الأغراض :

١- ظهر شعر الرثاء السياسى ، حي نظم الشعراء الفاطميون أشـــعارهم يـــرثون فيها آل البيت النبوى ويتفجعون عليهم ويبكونهم بكـــاء حاراً حيث كانت أشعارهم مغرقة فى اللوعة والحزن والأسى بل والتحريض على الأخذ بالثأر من قاتليهم ، وكانت موقعة كربلاء ومـــا حدث فيها من نكبات ذا أثر عميق فى أدب الفاطميين والشعر منه بوجه خاص .

ومن ذلك قصيدة تميم فى رثاء آل البيت التى بدأها بقوله :

نأت بعدما بان العـــــزاء سعـــاد ... فحشو جفـــون المقلتين سهاد

٢- كذلـــك : ظهر شعر الهجاء السياسى فى شعر الفاطميين والـــذى كـــان نتـــيجة طبيعية لهذه المآسى العلوية ، فبقدر ما رثى الشـــعراء الفاطمـــيون أئمتهم بقدر ما شنوا حرباً شعواء على هؤلاء الذيـــن كانوا سبباً فى هذه المآسى والنكبات ، حيث أكثر الشعراء من هجاء الأمويين والعباسيين إلا أنهم لم يتناولوا نهش الأعراض وذكر الحرمات والسوءات أو سب الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين أو لعـــنهم مـــثلما يفعـــل الشـــيعة الآخرون فى فارس والعراق والدولة البويهـــية وسلبها عن الأمويين والعباسيين ، ومن ذلك قول تميم بن المعز :

يـــا بـــنى هاشـــم ولســـنا ســـواء ... فـــى صـــغار من العلا أو كبار

إن نكن ننتمي لجد فإنا ... قد سبقناكم لكل فخار
ليس عباسكم كعلي ... هل تقاس النجوم بالأقمار ؟

كذلك أثرت المآسي والفواجع التي أحلت بالعلويين في الشعر الفاطمي في الخيالات والعواطف ، حيث أوغل الشعراء في خيالاتهم إلى حد الخرافة الأسطورية وهو أثر من أثار التطرف والغلو المذهبي وأثر من آثار الاضطهاد العنيف الذي تعرض له أبناء البيت النبوي ومن ذلك قول تميم :

بكت السماء لفقدهم ... والأرض واحتذت البرية

ووجد الشعراء الفاطميون في هذه المآسي مجالا خصبا لأخيلتهم ومنطلقا رحبا للجموح والغلو .

كذلك أثرت هذه المآسي في عاطفة الشعر الفاطمي حيث نجد العاطفة الحزينة الصادقة الملتهبة التي تعبر عن شدة الحزن والألم وكتمان الغيظ التي كانت في قلوب الشيعة ، ونرى هذه العاطفة الثائرة الغاضبة على بني أمية والعباسيين لما أنزلوه من مآس للعلويين كما نجد عاطفة الحب الشديدة لآل البيت خاصة بعدما حدثت لهم هذه المآسي والنكبات .

***

" الدولة الأيوبية "

قيام الدولة الأيوبية :

قامت الدولة الأيوبية فى منطقة من أهم مناطق العالم وأكثرها حيوية وهى ما يطلق عليها الآن : منطقة الشرق الأوسط ، وتشمل : مصر والشام والعراق والجزيرة العربية وأجزاء من آسيا الصغرى.

التحق أيوب وأخوه شيركوه بخدمة نور الدين محمود زنكى الأتابكى وكان شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يبعثان إلى مصر مع الحملات التى أرسلها نور الدين محمود لمنع الصليبيين من الاستيلاء على مصر أواخر الدولة الفاطمية ، ثم عين الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين شيركوه وزيراً مكافأة له على خدماته ثم تولى صلاح الدين الأيوبى الوزارة بعد وفاة عمه شيركوه سنة ٥٦٤ هـ وتلقب بالملك الناصر وقبض على أزمة الحكم فى مصر كلها وعزل الخليفة العاضد سنة ٥٦٧هـ - ١١٧١م وأمر بالخطبة للخليفة العباسى المستضئ بالله ، ثم توفى نور الدين سنة ٥٦٩ هـ - ١١٧٤م فأعلن صلاح الدين الأيوبى استقلاله التام ونصب نفسه سلطانا على مصر وعلى جميع أجزاء مملكة نور الدين بالتدريج ووافق الخليفة العباسى على سلطنته وفى عهده حل المذهب السنى محل المذهب الشيعى الذى كان فى عهد الفاطميين ، وظلا الحرمان الشريفان تابعين له وتحت سلطانه مثلما كانا من قبل ثم أرسل أخاه توران شاه حاكما على اليمن .

واســـتطاع صـــلاح الديـــن الأيوبى أن يضم الشام والجزيرة العربية إلى مصر ويوحد الوطن العربى تحت قيادته ووحد المسلمين جمـــيعا وجعلهـــم جـــبهة واحدة ضد الصليبيين وألقى بالثقل العربى والإسلامى كله على الصليبيين بعد أن أمن البلاد وطهرها من الفساد وقضـــى على الفتن والثورات الداخلية والتف المسلمون جميعا حوله مما أوقع الرعب فى قلوب الصليبيين فاتجه لمحاربتهم وتابع الجهاد ضـــدهم وانتصر عليهم انتصارات عديدة أشهرها انتصاره عليهم فى موقعـــة " حطيـــن" سنة ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م وقتل فيها الفرنج وأسر مـــنهم الكثيريـــن وتوالت انتصاراته عليهم فى نفس العام وفتح قلعة طـــبرية ونـــابلس وحيفا والناصرة وصيدا وبيروت وغيرها وتهاوت أمامه حصون الصليبيين وفك أسر المسجد الأقصى وفتح بيت المقدس وتسـلمه فـــى الســـابع والعشـــرين من شهر رجب ولم يبق بأيدى الصـــليبيين ســـوى : صور وعكا وأنطاكية وطرابلس وكان قد فتح عســـقلان وغزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال ، ثم وافاه الأجل المحتوم سنة ٥٨٩ هـ فكانت وفاته شجى فى كل حلق ودمعة فى كل عيـــن وراح الشـــعراء يـــبكونه ويـــرثونه رثاءاً حاراً ذاكرين عظم المصـــيبة الـــتى ألمـــت بالمسلمين فى فقده وناشرين أعماله وجهاده وبطولاته والخسارة التى لحقت بالمسلمين بموته .

ثم تولى أبناؤه من بعده حكم الأقاليم : فتولى الأفضل : دمشق والظاهـــر : حلب والعزيز عثمان : مصر ثم الملك العادل الذى يعد

أقوى شخصيته بعد صلاح الدين الأيوبى الذى ولى أولاده الحكم فى حـياته : فولـى الأشرف موسى : المشرق وابنه : المعظم عيسى : دمشق ، وابنه الكامل : مصر وكان يتنقل فيما بينهم .

وإذا كـان الصـليبيون قد قاموا بحملتهم الصليبية الأولى فى سـنة ٤٩٠ هـ - ٤١٩ هـ - ١٠٩٦ - ١٠٩٧م وهـى الحملـة التى نجحـت فـى تكويـن المملكـة اللاتينية وسط الخلافتين : العباسية والفاطمـية وكـان البطل : عماد الدين زنكى أول من تقدم لهدم هذه المملكـة وانتصر على الصليبيين • وقاموا بحملتهم الصليبية الثانية عام ٥٤١ هـ ٥٤٢ هـ - ١١٤٧ - ١١٤٧ م فى عهد الملك نور الدين محمود الذى لم ينجح فيها مثلما نجح سابقه ، والحملة الصليبية الثالثة التى قامت سنة ٥٨٣ هـ - ٥٨٤ هـ - ١١٨٧- ١١٨٨م وقد جابهها صـلاح الدين الأيوبى وانتصر فيها انتصارا ساحقا عليهم فى حطين. ثـم قامت بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى ثلاث حملات صليبية على مصـر : الأولـى فـى عهد الملك العادل أبى بكر سيف الدين أخى الملك صلاح الدين وانتصر على الصليبيين ، والثانية فى عهد الملك الكامل بن الملك العادل سنة ٦١٥ هـ حيث استنجد الملك الكامل بأبناء البيـت الأيوبى فأغاثوه وحرروا دمياط سنة ٦١٨ هـ وانتصروا على الصليبيين .

ثـم قامـت الحملـة الصليبية الثالثة على مصر سنة ٦٤٦ هـ بقـيادة لويـس التاسع ملك فرنسا فى عهد الملك الصالح نجم الدين

أيوب وقد استطاع لويس التاسع الاستيلاء على دمياط وكان السلطان نجـم الديـن أيـوب غائبا في دمشق فجاء خفية إلى المنصورة قبل وصـول الصـليبيين إليها بقليل إلا أنه توفى فأخفت زوجته : شجر الـدر خبر وفاته وأرسلت إلى ابنه الملك المعظم توران شاه ليتولى السـلطة وقاد الحرب بنفسه وانتصر على الصليبيين في المنصورة بعـد معركة دارت بين الفريقين في شوارع المنصورة وحقق نصراً سـاحقاً علـيهم فـي أول المحرم سنة ٦٤٨ هـ وطلب لويس التاسع الأمـان فأمنوه وأخذوه أسيراً مقيداً بالحديد واعتقلوه في دار القاضي فخر الدين بن لقمان في المنصورة .

وبعد ثمانية وعشرين يوما من هذا الانتصار قام المماليك بقتل الملك توران شاه وبمقتله انتهت الدولة الأيوبية في مصر .

ثم اتفق المماليك على تولى : شجر الدر السلطة لأنها مملوكة مـثلهم – ثـم تنازلت هي بدورها عن الملك لزوجها عز الدين أيبك الـتركماني الأصـل ٦٤٨ هـ – ٦٥٥هـ ودارت حـروب بينه وبين الأيوبيين في بلاد الشام حتى يعيدوا مصر إلى الحكم الأيوبي إلا أن المماليك انتصروا عليهم وثبتوا ملكهم واستقرت الدولة المملوكية في مصر .

وفـي سـنة ٦٥٦ هـ اسـتولى التتار على بغداد – عاصمة الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة والوزراء ودمروا بغداد وأحرقوها بما فـيها واستولوا على حلب وحماة وحمص ودمشق ثم وجهوا تهديدهم

إلـــى مصـــر بالاستسلام إلا أن المظفر سيف الدين قطز " هزمهم وانتصـــر علـــيهم فـــى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ ثم قتله ركن الدين الظاهـــر بيبرس وتولى السلطة من بعده ٦٥٨ هـ - ٦٧٥ هـ وأسس الخلافـــة العباســـية فـــى القاهـــرة وراح يحارب الصليبيين والتتار وانتصـــر علـــيهم انتصارات ساحقة وأوقع بهم هزائم نكراء وانتزع مـــنهم بلاد الإسلام بلداً بلداً حتى وصل إلى " قيصرية" عاصمة بلاد الـــروم وجلس على كرسيها إلى أن لقى ربه فى المحرم سنة ٦٧٦هـ فخلفـــه ابـــنه " السعيد " ثم خلفه أخوه " بدر " بعد خلعه له ثم تولى الملـــك المنصور قلاوون فى رجب ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ - بعد أن خلع بدراً ، وسار على نهج بيبرس فى جهاده ضد الصليبيين والتتار حتى أوقـــع بالتـــتار هزيمة ساحقة سنة ٦٨٠ هـ وانكمشوا طوال عهده ثم تفـــرغ للصليبيين ، وهزمهم واستولى على اللاذقية وحصن المرقب وطـــرابلس وغـــيرها ولـــم يـــبق معهم سوى صور وبيروت وعكا وعاجلـــته المنـــية سنة ٦٨٩ هـ وخلفه ابنه الأشرف خليل ٦٨٩ هـ - ٦٨٩ هـ - ٦٩٣ هـ وقاد الجيش بنفسه وفتح عكا بعد حصارها ثلاثة وأربعين يوماً فاستسلمت له بعد احتلال دام مائة سنة وثلاث سنين ثم استســـلمت صور وصيدا وبيروت وغيرها بعد فتح عكا ودالت دولة الصليبيين إلى الأبد .

نسب الأيوبيين :

اخـتلف المؤرخـون فى أصل الأيوبيين ، فذهب البعض إلى أنهم من أصول كردية وأن شاذى والد أيوب كان كردى الأصل بينما ذهـب آخرون إلى أنهم ينتمون إلى أصل عربى وأنهم ينتسبون إلى الأمويين وقد اعترف بعضهم بأنهم عرب وقد ذهبوا عند الأكراد وتـزوجوا منهم وعاشوا بينهم" حيث قال بعضهم : إنما نحن عرب نزلنا الأكراد وتزوجنا منهم "[١].

وقد تكون المجتمع الأيوبى من عناصر متعددة فبجانب العرب كـان الأتراك والأكراد والفرس والروم والأرمن والهنود وكان لكل عنصـر طباعه وعاداته وتقاليده وثقافته وكان هناك المسلمون السنة وهناك الشيعة والدروز والباطنية واليهود والنصارى والوثنيون من مانوية وزراد شتية وغيرها .

وقـد كان لكل ذلك أثره الواضح على الحياة الثقافية والعلمية والأدبـية خاصـة الشـعر فأثرت فيه تأثيراً واضحاً : قوة وضعفاً وموضوعات وشكلا ومضمونا خاصة : الحروب الصليبية التى كان لها أثر بارز وخطير على الأدب العربى والشعر العربى فى العصر الأيوبى وعلى اختلاف أغراضه وموضوعاته .

---

(١) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ١ صـ ٣ .

الحالة العلمية والأدبية :

يعـد العصـر الأيوبـى عصر إحياء للفكر والثقافة العربية والإسلامية والأدبية على الرغم من انه كان عصر الصراع السياسى والحـروب الصليبية التى طال أمدها واستمرت سنين طويلة وانشغل الخلفـاء والملـوك والـوزراء بل والشعب نفسه فى هذه الحروب الصليبية الطاحنة أمدا بعيداً .

فقـد اهتم الملوك الأيوبيون ووزراؤهم بالعلم والعلماء اهتماماً بالغـاً ووجهوا عنايتهم إلى إحياء العلوم الدينية والشرعية والاهتمام بالقـرآن الكـريم والحديث النبوى وعلومها وجميع العلوم الشرعية الأخـرى وأنشـأوا المـدارس العديدة ودور الحديث والمساجد التى أصـبحت مـدارس إسلامية شاملة مع كونها أماكن لإقامة الشعائر الدينـية ، وقـد قـدر الملـوك والوزراء الفقهاء والعلماء وأحبوهم وقـربوهم إليهم وأغدقوا عليهم الأموال والهبات ، فقد قرب " صلاح الديـن الأيوبى " إليه الفقهاء والعلماء وأحبهم حباً جماً واهتم اهتماماً كبـيراً بالمحافظـة على المظهر الإسلامى فى كل ناحية وكل شىء وأتبع أسلافه من أفراد البيت الأيوبى سنته إلى أن دالت دولتهم .

وقـد بذل الحكام الأيوبيون كل مايسطيعون فى سبيل النهضة العلمـية والدينية فأنشأوا كثيراً من المدارس ووفروا لها الأساتذة من أرجـاء العالم الإسلامى " وأصبحت عواصم مصر والشام والعراق المشـهوة : القاهرة الاسكندرية ودمشق وحلب وبغداد والموصل قبلة

القصـــاد مـــن ســـائر بلـــدان العالم العربى والإسلامى فى المشرق والمغرب" (١) هذا بجانب المساجد المنتشرة فى أرجاء الدولة الأيوبية سواء كانت فى مصر كالأزهر وجامع ابن طولون وجامع عمرو بن العاص والمسجد الأموى فى الشام حيث كانت منارات للعلم والثقافة ويقصدها الطلاب من أرجاء العالم الإسلامى للتعليم والدرس ، فضلاً عـــن الاهـــتمام بالمكتـــبات الـــتى كانـــت منتشرة فى ربوع الشرق الإســـلامى والتى كانت تزخر بالكتب والمراجع الكثيرة فى مختلف العلـــوم والفروع . كل هذا وغيره عمل على ازدهار الثقافة العلمية والدينية ازدهاراً كبيراً وبالتالى كثر العلماء والفقهاء فى هذا العصر كـــثرة عظيمة سواء كانوا فى مصر أو الشام مثل : " ابن الجوزى" و"ابـــن الخشاب " و"عبد اللطيف البغدادى " الرحالة العالم و" الإمام الغـــزالى" و" الشهرســـتانى" و"الحريرى " و" النسفى" و" الشاطبى " و"ابـــن رشد" و"ابن الأثير " وابن الصلاح" و" ابن الأنبارى " و" ابن منجـــب الصيرفى" و"ابن برى " و" البوصيرى " و" القفطى" وغيرهم الكثير فى مختلف العلوم الدينية واللغوية والعلمية .

أما من ناحية الحياة الأدبية فلم تكن تقل تقدماً وازدهاراً عن الحياة العلمية الدينية واللغوية ، فلقد قرب الخلفاء والملوك الأيوبيون جمـــيعاً ووزراؤهـــم الشعراء منهم وأحبوهم وأغدقوا عليهم الأموال الطائلـــة وشـــجعوهم على نظم الشعر فى مختلف الفنون الشعرية ،

---

(١) ص ٧٥ الأدب فى العصر الأيوبى د / محمد زغلول سلام .

فضـــلاً عما قامت به الحروب الصليبية من إلهاب مشاعر الشعراء وعواطفهم وأذكت حماستهم فأنشأوا القصائد الشعرية التى تدعو إلى الجهـــاد والنصر على أعداء الإسلام من الصليبيين ، وراح الشعراء يمدحـــون الخلفـــاء والملوك والوزراء ويحمسونهم ويلهبون نخوتهم الإســـلامية للدفـــاع عـــن الإسلام والمسلمين فى شعر حماسى رائع يفـــيض بالحض والتحريض والثأر من هؤلاء المعتدين ، فضلاً عن حـــب الخلفـــاء والوزراء للشعر والشعراء وتذوقهم للشعر ونقده بل ونظمه فلقد عرف " صلاح الدين " و " نور الدين محمود " و" الملك العـــادل " و"الملك الكامل " و"الملك الأشرف " بحبهم للشعر وتقريبهم للشـــعراء وإغـــداق الأمـــوال الطائلة عليهم وعقد الندوات الشعرية ومجـــالس المطارحـــات بالشـــعر وغنائه ونقده مما عاد على الشعر بالنهوض والازدهار .

ولقد لعب الشعر العربى دوراً بارزاً فى أحداث العصر وشمل طبقات متعددة من أبناء المجتمع فلم يقتصر نظم الشعر حينذاك على طبقة الشعراء المتخصصين بل نظم الشعر الفقهاء والعلماء والأطباء والـــتجار وأصحاب الحرف المختلفة ، وظهر جمع من الشعراء فى هذا العصر قل أن نجد له مثيلاً من حيث العدد فى العصور المتقدمة سواء كانوا فى " مصر" أو فى الشام " أمثال : عمارة اليمنى و"أسامة ابن منقذ " و"المهذب بن الزبير " وابن منير الطرابلسى " وابن مقرب الإحســـانى " والضرير الحمصى " و"القاضى الفاضل " وعماد الدين

الأصـــبهانى " و"ابن النبيه المصرى " و"الأبيودى" و"ابن القيسرانى" و"ابـــن عنين " و"ابن الساعاتى " و"ابن سناء الملك " و"ابن قلاقس السكندرى " و"الأسعد بن مماتى : و"عمر الفارض " و"البهاء زهير " و"ابن مطروح" و"ابن أبى الإصبع " وغيرهم الكثير والكثير .

فلقــد كانت هذه الفترة من أخصب الفترات الأدبية خاصة فى مصـــر وقــد امتازت بكثرة الشعراء الذين تزخر بهم الكتب الأدبية والتاريخـــية الـــتى تناولـــتهم مثل " الرسالة المصرية " " لابن أبى الصـــلت " و" الخريدة" للعماد الأصبهانى ، و"بدائع النهاية " " لابن ظافر " و" المغرب " لابن سعيد وغير ذلك من كتب الأدب والتاريخ التى ذكرت أو تحدثت عن شعراء العصر الأيوبى .

ولقد تناول الشعر الأيوبى أغراض الشعر العربى القديمة من: مـــدح وفخر وغزل ورثاء ووصف وطبيعة وعتاب وشكوى وهجاء وشـــعر سياســـى وشـــعر ديـــنى وشـــعر اجتماعى وغير ذلك من موضوعات الشعر التى عرفت من قبل فى الأدب العربى فضلاً عن شعر الحروب الصليبية وشعر القومية الإسلامية والجهاد ضد أعداء الإسلام ووصف المعارك الحربية وآلات القتال والحصون ، وفضلاً عن تصوير الحياة الإجتماعية للمجتمع وعاداته وتقاليده ومدح المدن وذمها ووصف الأنهار والرياض والبساتين ووصف الحشيشة وشعر الفكاهـــة والألغـــاز والمطارحـــات الشعرية والشعر الصوفى وشعر المدائح النبوية وغير ذلك من أغراض الشعر المختلفة .

" والحق أن الأدب كله في هذا العصر تلون بلون الحياة الحربية وما ينجم عنها من نصر أو هزيمة وما تستدعيه من تهيج الخواطر وإثارة المشاعر وتحميس للمحاربين وحث على النزال ثم ما يترتب عليها من حزن وحسرة أو فرح أو بهجة أو خوف أو ذعر إلى غير ذلك من أغراض الشعر[١] ".

ولقد ظهرت في العصر الأيوبي عدة مدارس شعرية متميزة كان لكل منها خصائصها وسماتها الفنية المتميزة أهمها :

١- **مدرسة القوة والتقليد** : حيث راح شعراء هذه المدرسة يتبعون نهج الشعر العربي القديم ويسيرون على أسلوبه ومعانيه وصوره وشكل القصيدة العربية القديمة وبنائها ، أمثال : "الأبيوردى" و"الطغرائى" و"حيص بيص" و"ابن التعاويذى " و"ابن منير الطرابلسي " و"المهذب بن الزبير " و" أسامة بن منقذ " وابن النبيه المصرى " في معظم مدائحه .

٢- **مدرسة الرقة والسهولة** : وأعنى بها جميع الشعراء الذين عبروا في شعرهم عن حياتهم وبيئتهم التي يعيشون فيها ، وجاءت ألفاظهم رقيقة عذبة لينة سهلة واضحة وابتعدوا عن التكلف والتصنع والإغراب أمثال : "ابن عرام" وابن العصار " و"ابن الفقيه " وابن النبيه المصرى " في غزله ووصفه .

---

(١) ص ٣٨ ابن سناء الملك " حياته وشعره ، تحقيق / محمد إبراهيم نصر مراجعة الدكتور / حسين نصار . طبع عام ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧م القاهرة.

٣- **مدرسة العقائد** : وأعنى بهم شعراء المديح الذين زخرفت مدائحهم بالعقائد الشيعية التى تأثروا فيها بالعقائد الفاطمية التى كانت فـى عصـر الفاطميين " فالعقائد الفاطمية بمصطلحاتها ظهرت فى مدائـح الشـعراء على الرغم من تنكرهم – أى الأيوبيين – للشيعة وإيمانهم بالمذهب السنى "[١].

وكـان ،" ابـن النبيه المصرى " أجرأ الشعراء الأيوبيين جميعاً وأكـثرهم اسـتخداماً للعقائد الشيعية والاتكاء عليها فى أفكاره وصوره ومعانيه وألفاظه ، يعقبه " ابن الساعاتى وابن مطروح وابن سناء الملك .

٤- **مدرسـة الكـتاب** : وكان شعراء هذه المدرسة يهتمون بالموسـيقى اللفظـية ويؤثرون الألفاظ الضخمة ويتلاعبون بالألفاظ تلاعباً يتضح فيه أثر الصناعة والتكلف واهتموا بالبديع اهتماماً بالغاً " كابـن سـناء الملك " وابن قلاقس ، وابن الساعاتى و الأسعد ابن ممـاتى وغـيرهم من شعراء العصر ، وإن كان البديع هو المذهب الذى انتشر انتشاراً كبيراً فى العصر إلا أنه قد وجد من بين الشعراء مـن لا يغـرق فى مذهبه أمثال : "ابن الطرابلسى " و"ابن القيرانى" "وابن النبيه المصرى ".

كذلـك ازدهر النثر فى العصر الأيوبى وتقدم وارتقى لنفس الأسـباب الـتى أدت إلـى ازدهار الشعر بل إن النثر فى العصر الأيوبـى كـان أكثر تقدماً وازدهاراً من الشعر بسبب ما كان يمثله

---

(١) ص ١٨٥ دراسات فى الشعر فى عصر الأيوبيين . للدكتور : محمد كامل حسين .

الكاتب من عنصر مهم من عناصر الإدارة فى الدولة وبسبب احتياج الدولة إلى عدد ضخم من أصحاب الكتابة فى دواوين الدولة وبسبب حـب الملـوك والخلفاء وتقريبهم للكتاب وإنزالهم منزلة رفيعة، كل ذلـك أدى إلـى نهضة الكتابة والنثر الفنى فى العصر الأيوبى بل " وتفوقت على الشعر وأصبح الكتاب بمنزلة أرفع من منزلة الشعراء وصـارت بـأيديهم أزمـة البيان بعد أن رفع رايته الشعراء دهوراً طويلـة من قبل (١) وقد تنوع النثر الفنى فى العصر الأيوبى بين : كـتابة وخطابـة دينـية وسياسـية ورسائل ومقامات وقصة وأدب الرحلات والمذكرات وغيرها .

وظهر كثير من الكتاب فى هذا العصر أمثال : " ابن الخلال" و"ابـن الشـحناء " و"ابـن الصيرفى " و" القاضى الجليس " و"ابن الجراح" و"عماد الدين الأصبهانى " و"ابن النبيه المصرى "" وضياء الدين ابن الأثير " وغيرهم .

وهكـذا ازدهرت الحياة العلمية والأدبية فى العصر الأيوبى ازدهاراً واضحاً ونما الشعر العربى وتقدم ولم يكن عصر الأيوبيين عصـر انحطاط وتأخر كما زعم البعض وإن تفوقت عليه العصور الأدبـية السـابقة إلا أنـه كـان متقدماً أيضاً وإن لم يرق إلى نفس المستوى الذى كانت عليه الحياة الأدبية من قبل .

---

(١) ص ١٧٥ الأدب فى العصر الأيوبى د / محمد زغلول سلام .

نماذج من الشعر الأيوبى

فــى الحملة الأولى الصليبية وقف البابا : أوروبان الثانى فى مجمــع الأساقفة فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م وطلب من المسيحيين أن يخلصــوا الــبلاد الــتى وطئتها أقدام المسيح وتعذب فيها جسده وتخلــيص بيــت المقــدس من أيدى الكفرة المسلمين وقامت الحملة ونجحــت وأعملــت القــتل والذبــح والتدمير فى بلاد الإسلام راح الشعراء يصفون هذه الفظائع والنكبات ومنها قول أحدهم [١]:

أحــل الكفــر بالإســلام ضيما ... يطــول علــيه للديــن النحيب
فحــق ضــائع وحمــى مــباح ... وســيف قــاطع ودم صــبيب
وكــم مــن مســلم أمسى سليبا ... ومســلمة لهــا حــرم ســليب
وكــم مــن مســجد جعلوه ديرا ... علــى محــرابه نصــب الصليب
دم الخــنزير فــيه لهــم خلوق ... وتحــريق المصــاحف فيه طيب
أمــور لــو تأملهــن طفــل ... لطفــل فــى عوارضــه المشــيب
أتسـبى المســلمات بكــل ثغر ... وعــيش المســلمين إذن يطيب؟
أمــا لله والإســلام حــق ... يدافــع عــنه شــبان وشــيب؟
فقل لذوى البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ويحكــم أجيبــوا

---

(١) النجوم الزاهرة جـ ٥ صـ ١٥٢.

ويقول الأبيوردى يبكى بيت المقدس وأهلها : –

مزجنا دماء بالدموع السواجم　　فلم يبق منا عرضة للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يُفيضه　　إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فإيهاً بنى إسلام إن وراءكم　　وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة فى ظل أمن وغبطة　　وعيش كنوار الخميلة ناعمْ
وكيف تنام العين ملء جفونها　　على هفوات أيقظت كل نائم
وإخوانكم بالشام يضحى مقيلهم　　ظهور المذاكى أو بطون القشاعم
تسومهم الروم الهوان وأنتم　　تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى　　توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبا　　وسمر العوالى داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة　　تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها　　ليسلم يقرع بعدها سنَّ نادم
سللن بأيدى المشركين قواضبا　　ستغمد منهم فى الطلا والجماجم
يكاد لهن المستجن بطيبة　　ينادى بأعلى الصوت ياآل هاشم
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدى　　رماحهم والدين واهى الدعائم
ويجتنبون النار خوفاً من الردى　　ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الأعاريب بالأذى　　ويغضى على ذل كماة الأعاجم
دعوناكم والحرب تدعو ملحة　　إلينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية　　تطيل عليها الروم عض الأباهم
فإن أنتم لم تغضبوا بعد هذه　　رمينا إلى أعدائنا بالجرائم

ويقـول الشـاعر المعروف بالجوانى المصرى يمدح صلاح الدين الأيوبى بعد يوم القدس [١]:

أتـرى منـاماً مـا بعين أبصر	القـدس يفـتح والفـرنجة تكسر
وملـيكهم فى القيد مصفود ولم	يـر قـبل ذاك لهـم مليك يؤثر
قـد جـاء نصر الله والفتح الذى	وعـد الرسول فسبحوا واستغفروا
يـا يوسف الصديق أنت لفتحها	فاروقهـا عمـر الإمـام الأطهر
ملـك غدا الإسلام من عجب به	يخـتال والدنـيا بـه تتبخـتر
نـثر ونظـم طعـنه وضـرابه	فالـرمح يـنظم والمهـند يـنثر
غاراته جمع فـإن خطبت له	فيهـا السيوف فكـل هـام منبر

ويقول العماد يرثيه بعد وفاته :

أيـن الـذى كانـت له طاعاتنا	مـبذولة ولـربه طاعاتـه
أيـن الـذى عنت الفرنج لبأسه	ذلا ومـنها أدركـت ثاراتـه
فـى نصرة الإسلام يسهر دائماً	لـتطول فى روض الجنان سناته
لا تحسـبوه مـات شخص واحد	فممـات كـل العالميـن مماتـه
ملـك عـن الإسلام كان محاميا	أبـداً إذا مـا أسـلمته حماتـه
الديـن بعـد أبى المظفر يوسف	أقـوت قـواه وأقفـرت ساحاته
مـا كنـت أعلم أن طوداً شامخا	يهـوى ولا تهـوى بـنا مهواته
مـن لليـتامى والأرامـل راحم	متعطف مفضوضـة صدقاته؟
مـن للـثغور وقد عداها حفظه	مـن للجهـاد ولـم تعد عاداته؟

---

(١) الروضتين جـ ٢ صـ ١٠٥.

يــا وحشــة الإسلام حين تمكنت فــى كــل قلــب مؤمن روعاته
ما كان أسرع عصره لما انقضى فكأنمـــا ســـنواته ســـاعاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه لهــم ففــيم تاخــرت ركــباته
كانوا وقوفا أمس تحت ركابــه واليوم هم حول السرير مشاته[1]

ويقول الشاعر ابن النبيه المصرى يمدح الخليفة العباسى أحمد الناصر لدين الله :

بغــداد مكتــنا وأحمــد أحمــد حجــوا إلى تلك المناسك واسجدوا
يامذنبيــن بهــا ضعوا أوزاركم وتطهــروا بــترابها وتهجــدوا
فهــناك مــن جسد النبوة بضعة بــالوحى جــبريل لهــا يــتردد
بــاب الــنجاة مديــنة العلم التى مــازال كوكــب هديهــا يــتوقد
هــذا هو السر الذى بهر الورى فــى ظهــر آدم فــالملائك سجد
هــذا الصــراط المستقيم حقيقة مــن زل عــنه ففى الجحيم يخلد
هذا الذى يسقى العطاش بكفــه والحوض مُمتنع الحمــى لا يورد

وقــال يــتغزل فــى مقدمة قصيدة مدح فيها الملك الأشرف الأيوبى :

أفديــه إن حفظ الهوى أو ضيعا ملــك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
مــن لــم يذق ظُلم الحبيب كظلمه حلــواً فقــد جهل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصـّ ــبر الجمــيل فقد عفا وتضعضا
هــل فــى فــؤادك رحمة لمتيم ضــمت جوانحــه فؤاداً موجعا؟

---

(1) الروضتين فى أخبار الدولتين جـ٢ صـ ٢١٥.

هل من سبيل أن أبث صباتى ... أو أشتكى بلواى أو أتوجعا؟
إنى لأستحتي كما عودتني ... بسوى رضاك إليك أن أتشفعا
يا عين عذرك فى حبيبك واضح ... سحّى لوحشته دماً أو أدمعا

ويقول البهاء زهير يتغنى بأرض الوطن : مصر العزيزة :

سقى واديا بين العريش وبرقة ... من الغيث هطال الشآبيب هتانُ
وحيا النسيم الرطب عنى إذا سرى ... هنالك أوطاناً إذا قيل أوطانُ
بلاد متى ماجئتها جئت جنة ... لعينيك منها كل ماشئت رضوان
تمثل لى الأشواق أن ترابها ... وحصباءها مسك يفوح وعقيان
فيا ساكنى مصر تراكم علمتم ... بأنى مالى عنكم الدهر سلوان ؟
عسى الله يطوى شقة البعد بيننا ... فتهدأ أحشاء وترقأ أجفان
علىَّ لذاك اليوم صوم نذرته ... وعندى- على رأى التصوف شكران

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٦٤٣هـ :

مهدت بالغزل الرقيق لمدحه ... وأردت قبل الفرض أن أتنفلا
ملك شمخت على الملوك بقربه ... ولبست ثوب العز منه مسبلا
قهر الزمان وقد عرانى صرفه ... حتى مشى فى خدمتى مترجلا
وإذا نظرت وجدت بعض هباته ... فيها المفاخر والمآثر والعلا
من معشر فاقوا الملوك سيادة ... وسعادة وتطولاً وتفضلا
وإذا سألت سألت غيثا مسبلا ... وإذا لقيت لقيت ليثاً مشبلا

مـولاى قـد أهديـتها لك كاعبا ... عـذراء تـبدى عـذرة وتنصلا
يا أيهـا الملـك الـذى دانت له ... كـل الملـوك تـودداً وتوسـلا
يا من مديحـى له صدق كلـه ... فكأنما أتلـو كتابـاً منـزلا

وهكذا كثر الشعر والشعراء فى هذا العصر كثرة هائلة وكثرت أغراضه وتعددت موضوعاته ، والتف الشعراء بمصر والشام حول سلطانهم الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى – وكل الملوك الاخرين مـن بعـده – وأحاطوا بعروشهم " وما أسهل القول إن وجد الشعر مجـالاً وما أسلس قياده إن ثار عن نازعة ووثب عن عقيدة ، وهل هناك أقوى إثارة للشعر من نازعة الدين ولا سيما إذا أحس الضعيف قوة بعد ضعف وعزة بعد ذل وقد كان حال المسلمين كذلك – فى هذا العصـر – فهتف الشعراء بمخلصهم وبطلهم وتوجوه بتيجان المجد والفخـار [1] فـى أشعار خالدة خلود الدهر تسطر أعماله وبطولاته وجهـاده ضـد الصليبيين وتصور انتصاراته العديدة عليهم بجوار الأغراض والموضوعات الشعرية الأخرى والتى كثرت كثرة هائلة والتى تأثرت هى الأخرى بروح العصر وأحداثه فقد تأثر شعر المدح بـروح العصـر وراح الشعراء يمدحون الملوك والوزراء والقواد ويشـجعونهم لمحاربـة الصـليبيين ويضـفون عليهم صفات القوة والشجاعة والجهاد والنصر للدين والمسلمين وإن كان شعراء العصر لم يرقوا إلى مستوى شعر المتنبى فى مدح سيف الدولة حينما مدحوا صـلاح الدين الأيوبى فقد كان هذا البطل جديراً بان يكون له شاعر

(١) الروضتين جـ ٢ صـ ١٠٥.

كالمتنبى يخلد أعماله وبطولاته ويصور انتصاراته إلا أننا لم نجد إلا قصائد عادية فى مستواها الفنى حيث شغل الشعراء بالصنعة اللفظية أكثر من عنايتهم بروح الشعر فخرج شعر المدح إلى مظهر شكلى لفظى بعد أن ارتقى به شاعر العربية المتنبى إلى لون رفيع .

وقد كان فن الهجاء من الأغراض التى كثر فيها القول فى هذا العصر إلا أنه اختلف فى طباعه وخصائصه ومادته عن الهجاء القديم وشمل هجاء الأشخاص والبلاد والأشياء وتجاوز شعر هجاء الأفراد إلى هجاء الناس جميعا وهجاء الزمن والدهر بسبب الفساد الذى استشرى والظلم الاجتماعى الذى خيم على المجتمع مما جعل الناس يتحاسدون ويتحاقدون ، كما تأثر شعر الغزل بروح العصر ومثله ووجد الغزل بألوانه الأربعة وشاع الغزل بالمذكر شيوعا فاضحاً وبصورة لم يسبق لها مثيل حتى أصبح الغزل بالمذكر عادة للشعراء يفتتحون به القصائد الأخرى مثلما كانت تفتتح قديما بالنسيب وبكاء الأطلال ، وذلك بسبب العكوف عن لذة النساء والحروب الصليبية .

وأجاد الشعراء فى وصف الطبيعة وأكثروا القول فيها على اختلاف مظاهرها من : رياض وأزهار وأنهار وقصور وبرك وغيرها فضلا عن وصف الطبيعة الحية من حيوانات وطيور فضلا عن النظم فى العقائد والمذاهب والملل وتفنيد كل مذهب للمذاهب الأخرى والرد عليهم والانتصار لمذهبهم ونشر آرائهم عن طريق الشعر حتى تشيع بين الناس.

المحتويات

تم بحمد الله